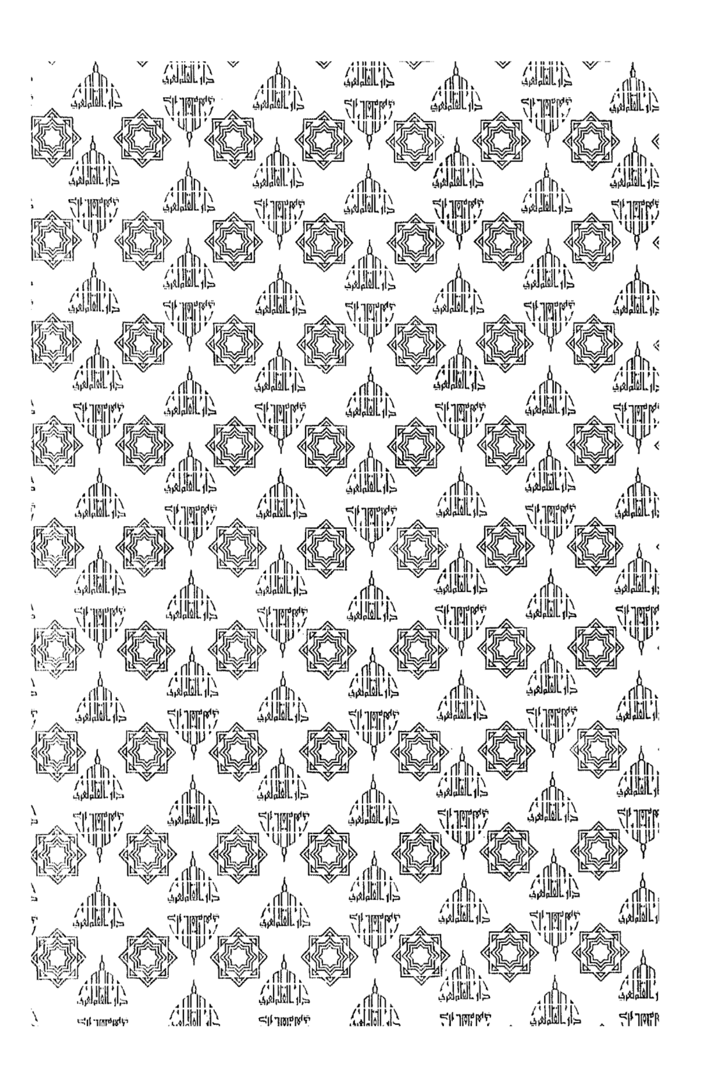
معارك عربية إسلامية خالدة

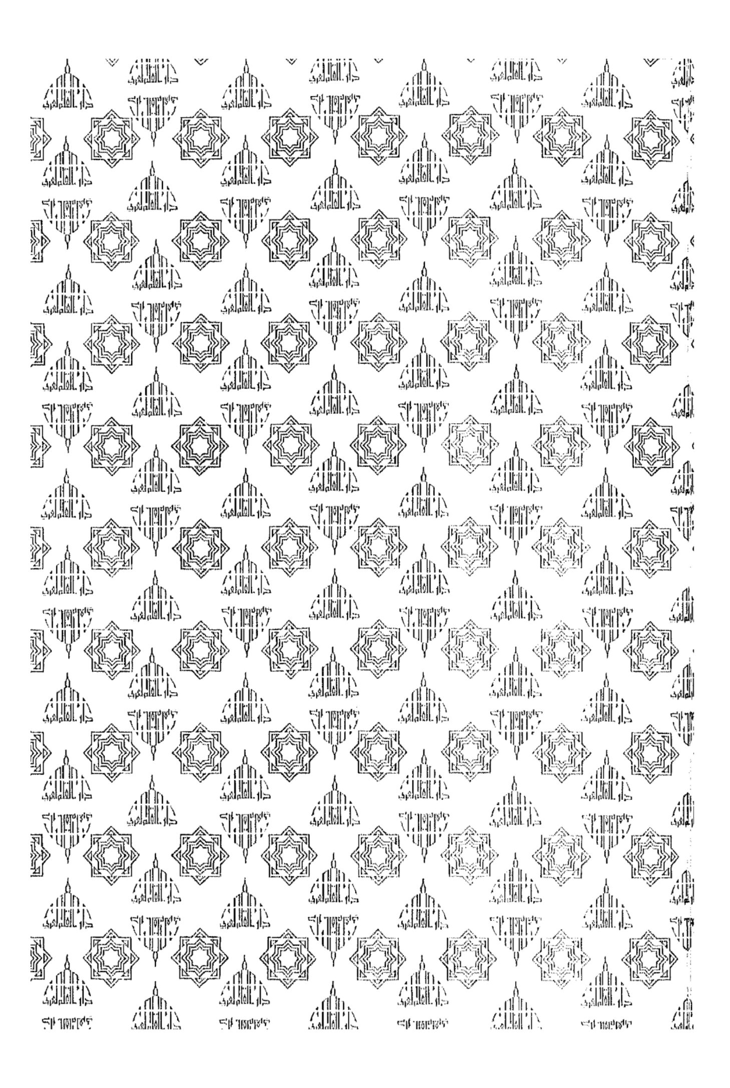
١٥ - معركة العمورية

١٦ - معركة الزلاقة



دار القلم العربي





مَعارك عَربيّة خَالدة
١٥

معركة عمورية

إعـــداد
عبدالقادر الشيخ ابراهيم

دار القلم العربي



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

1421 هـ - 2001 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

ص.ب : 78 هاتف : 2213129 فاكس : 2212361 21 963+

البريد الالكتروني : E-mail : qalam_arabl@naseej.com

معركة عمورية

معركةُ عموريةَ من المعاركِ الإسلاميةِ الخـــالدةِ التـــي مَلأتْ صفحاتِ تراثـــنا العربي والإسلامي العريـــقِ وتاريخنـــا الناصعِ المشرقِ المجيدِ .

إنها تُعتَبرُ بحقٍ مفخرةً من مفاخرِ المسلمين ويوماً مـــن أيامِهمُ الخالدةِ .

إنها تحكي قصةَ الثأرِ والشرفِ ، وتروي حكايةَ البطولـةِ والعزةِ والفخارِ ، يومَ انتفضَ الأسدُ من عرينِـــهِ وصحـــا مـــن كبوتِهِ حين أحسَّ بجرحِ كرامتِهِ وفقدِ هيبتِهِ والاعتـــــداءِ علـــى محارمِه ، وما قيمةُ الإنسانِ حين يفقدُ هذه العناصرَ الهامةَ مـــن شخصيتِهِ . . . !! وما قيمةُ الإنسانِ حين يصبـــحُ بـــلا كرامـــةٍ ولاهيبـــةٍ ولاشرفٍ ، إنّ الإنسان يرفضُ هذا ويثورُ عليـــه أيّـــاً كان لونه أو جنسُـــهُ أو هويتُهُ ، فكيف إذا كـــان مســـلماً يعـــتزُ بانتمائهِ إلى الإسلامِ ويفخرِ بانتسابهِ لأمةٍ ما عرفـــت إلا العـــزةَ والنخوةَ والشموخَ والإباءَ . . . !

يايومَ وقعةِ عموريةَ انصَرَفَتْ منكَ المنى حُفّلاً معسولةَ الحَلَبِ

ترجمةُ المعتصمِ

قبل الخوضِ في تفاصيلِ معركةِ عموريةَ لا بدّ لنا من الرجوعِ إلي ذكر شيءٍ من ترجمةِ الخليفةِ المعتصمِ لأنه بطلُ هذه المعركةِ الخالدةِ ، وهو الذي أبلى فيها البلاءَ الحسنَ ، ورفَعَ شأنَ العربِ والمسلمين وأظهر فيها من البطولةِ والنخوةِ والشهامةِ ما يدعو إلى الفخرِ والاعتزازِ ، ويجعلُ كلّ عربّي ومسلمٍ يرفعُ رأسهُ عالياً حتى يبلغَ الشمسَ ويلامسَ السماءَ في عزةٍ وإباءٍ وشموخٍ .

تدبيرُ معتصمٍ باللهِ منتقمٍ ... للهِ مرتقب في اللهِ مرتغِبِ

اسمُهُ ونسبُهُ:

هو أميرُ المؤمنين محمدُ المعتصمُ بنُ أمير المؤمنين هارونَ الرشيدِ بنِ المهدين بنِ المنصورِ العباسي ، نسبةً إلي سيدِنا العباسِ بنِ عبدِ المطلبِ عمِّ النبي صلى الله عليه وسلم .

لقبُهَ وكنيتُه:

يكنى المعتصمُ بأبي إسحاق ، ويُلَقّبُ بالمثّمِنِ قال ابنُ كثيرٍ: يُقالُ له المثّمِنُ لأنه ثامنُ ولدِ العباسِ ، وأنه ثامنُ الخلفاءِ من ذريتِهِ ، ومنها أنه فتح ثماني فتوحاتٍ ومنها أنه أقام في الخلافةِ ثمانيَ سنينَ وثمانيةَ أشهرٍ وثمانيةَ أيامٍ وقيل: يومين .

وأنهُ وُلِدَ سنةِ ثمانين ومائةٍ في شعبانَ وهو الشهرُ الثامنُ من السنةِ .

وأنه توفيَ وله من العمرِ ثمانيةٌ وأربعون سنةً .

ومنها أنه خلّفَ ثمانيةَ بنينَ وثمانيَ بناتٍ .

ومنها أنه دخل بغدادَ من الشامِ في مستهلِ رمضانَ سنةَ ثمانِ عشرةَ ومائتين بعد استكمالِ ثمانيةِ أشهرٍ من السنةِ بعد موتِ أخيه المأمون .[1]

مولدُه:

وُلِدَ المعتصمُ يومَ الاثنين لعشرٍ خلونَ من شعبانَ سنةَ ثمانين ومائةٍ ، ووليَ الخلافة في رجبَ سنةَ ومائتين ، وهو أحد أولادِ ستةٍ من أولادِ الرشيد كلٌ منهمُ اسمُهُ محمدٌ وهم : أبو إسحاقَ محمدُ المعتصمُ ، وأبو العباسِ محمدٌ الأمينُ ومحمدٌ أبو يعقوبَ ومحمدٌ أبو عيسى ، ومحمدٌ أبو علي[2] .

صفته:

كان المعتصمُ أبيضَ الوجهِ ، أصهبَ[3] اللحيةِ مربوعاً مُترَبَ اللونِ حمرةً ، أحسَنَ العينينِ واسعَهُما .

(١-٢) البداية والنهاية لابن كثير .

(٣) أصهبُ اللحية : أحمرُها ، والصهبة: أن يعلوَ الشعر حمرةٌ

قال ابنُ الأثير: ذُكِرَ عن أحمدَ بنِ أبي دؤادَ[1] أنه ذكــر المعتصمَ فأسهَبَ في ذكرِهِ ، وأَكْثَرَ من طيبِ أعرافِــهِ ، وسـعةِ أخلاقِهِ وكريمِ عشرتِهِ .

قال: وقال يوماً ونحن بعموريةَ!: ما تقولُ في العُبسْرِ[2] يا أبا عبدِ الله ...؟

فقلتُ: يا أمير المؤمنين ، نحن ببلادِ الــرومِ والعُبسْــرُ بالعراق .

فقال: قد جاء وامته بشيءٍ من بغــدادَ ، وعلمــتُ أنــكَ تشتهيهِ ، ثم أحضَرَهُ ، فمدَّ يَدهُ فأخذ العَــذْقَ[3] فارغــاً ، قــال: وكنتُ أزاملُهُ كثيراً في سفرِهِ ذلك .

قال: وأخذتُ لأهلِ الشاشِ[4] منه ألفَي ألفَ درهمٍ لعملِ نهرٍ كــان لهمُ اندفَنَ في صدرِ الإسلامِ ، فأضَرَّ بهم .

وقــال غــيُرهُ: إنــه كــان لا يبــالي إذا غضــب مــن قتــل

(١) هو قاضي المعتصم ، وكان رأس الأفعى في فتنة المعتزلة التـي تقول بخلق القرآن واقتنع بها المأمون الذي قرب ابن أبي دؤاد وجعله على رأس حملة الناس بها في عهده ، وكذا في عهد المعتصم والواثق حتى أوقفها المتوكل ومنع القول بها وعاد إلى قول أهل السنة .

(٢) العبسر : التمر قبل أن يرطب لعغنافتِهِ

(٣) العذق: كل غصن له شُعَبٌ ، وقيل: النخلة يحملها .

(٤) الشاش: مدينة بما وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك. انظـر معجم البلدان .

وما فعل بهم ولم يكنْ له لذةٌ في تزيينِ البناءِ ، ولم يكنْ بالنفقـــةِ أسمحَ منه في الحربِ[1] .

صفاتُهُ الجسديةُ:

كان المعتصمُ ذا بأسٍ شديدٍ في نفسِهِ ، وشجاعةٍ فائقـــةٍ في قلبِهِ ، وقوةٍ خارقةٍ في جسدِهِ ، ذكر منه أصحـــابُ التـــاريخِ والتراجمِ أشياءَ كثيرةً منها: ما روي عن أحمدَ بنِ أبي دؤادٍ أنـــه قال: ربما أخرج المعتصمُ مساعدَهُ اليَّ وقال لي: عُضَّ يـــا أبـــا عبدِ الله بكلِ مل تقدرُ عليه ، فأقولُ: إنه تطيبُ نفسي يـــا أمـــيرَ المؤمنين أن أعضَّ ساعدَكَ.

فيقولُ: إنه لا يضرني ، فأكدِمُ[2] بكلِ ما أقدرُ عليه فـــلا يؤثرُ ذلك في يدِهِ .

وقَرَّ يوماً في خلافةِ أخيه بمخيَّمٍ فإذا امرأةٌ تقولُ: ابني... ابني .

فقال لها: ما شأنُكِ ...؟

فقالَتِ: ابني أخذه صاحبُ هذه الخيمةِ .

فجاء اليه المعتصمُ فقال له: أطلِقْ هذا الصبيَّ .

---

(١) الكامل في التاريخ .

(٢) كَدَمَ: عَضَّ بأدنى فمه .

فامتَنَعَ عليه ، فقبض المعتصمُ على جسدِهِ بيــدِهِ فسُــمِعَ صوتُ عظامِهِ من تحتِ يدِهِ ، ثم أرسلَهُ ، فســقط ميتــاً وأمــر بإخراج الصبي الى أمِهِ .

ولمّا ولِيَ الخلافةَ كان شهماً وله همةٌ عاليةٌ في الحــربِ ومهابةٌ عظيمةٌ في القلوبِ ، وإنما كانت مهمتُهُ في الإنفاقِ فــي الحربِ لا في البناءِ ولا في غيرِهِ(١) .

ورويَ أن ملكَ الرومِ كتب إليه كتاباً يتهدَّدُهُ فيه ، فقال للكاتبِ: أكتبْ: قد قرأتُ كتابَكَ ، وفهمتُ خطابَكَ والجوابُ ما ترى لا ما تسمعُ ، وسيعلمُ الكفارُ لِمَنْ عقبى الدار(٢) .

أخلاقُــهُ:

روي عن أخلاقِهِ وحُسْنِ شمائِلِهِ وتواضُعِهِ أشياءُ كثــيرةٌ منها: ماذكره ابنُ الأثيرِ قال: قال اسحاقُ بنُ المُصْعَبيُّ: دعــاني المعتصمُ يوماً فدخلتُ عليه فقال: أحببـــتُ أنْ أضــربَ معــك بالصوالجة(٣)، فلعبنا بها ساعةً ، ثم نزل وأخذ بيدي نمشي إلــي أن صار حجرةِ الحمّامِ فقال: خذ ثيابي ، فأخذتُها ، ثــم أمرنــي بنزعِ ثيابي ، ففلتُ ودخلتُ ولبس معنا غلامٌ ، فقمتُ إليه فخدمتُهُ

(١-٢) البداية والنهاية .

(٣) الصوالجة: جمع صويج ، وهو العود المموج والصولجان: عصاً يعُطَفُ طرفُها يضربُ بها الدواب .

ودلّكتُهُ ، وتولّى المعتصمُ مني مثلَ ذلك ، فاستفيتُهُ فأبى عليَّ ،ثم خرجنا ومشى وأنا معه ، حتى صار إلى مجلسِهِ ، فنام وأمرني فنمتُ حذاءَهُ بعد الامتناعِ .

ثم قال لي: يا إسحاقُ ، إنّ في قلبي أمراً أنا مفكرٌ فيه منذُ مدةٍ طويلةٍ ، وإنما بسطتُك في هذا الوقتِ لأفشيَهُ إليكَ .

فقلتُ: قلْ يا أميرَ المؤمنين ، فإنما أنا عبدُك وابنُ عبدِك.

قال: نظرتُ إلى أخي المأمونِ وقد اصطنع أربعةً فأفلحوا جميعُهم ، وأنا قدِ اصطنعتُ أربعةً فلم يفلحْ أحد منهم .

قلتُ: ومَنِ الذين اصطنعَهُمُ المأمونُ...؟

قال: طاهرُ بنُ الحسينِ فقد رأيتَ وسمعتَ ، وابنُهُ عبدُ اللهِ بنُ طاهرٍ ، فهو الرجلُ الذي لم يُرَ مثلُهُ ، وأنتَ فأنتَ واللهِ الرجلُ الذي لايعترضُ السلطانُ عنكَ أبداً وأخوكَ محمدُ بنُ إبراهيمَ ، وأين مثلُ محمدٍ...؟؟

وأنا فاصطنعتُ الأفشينَ ، فقد رأيتَ إلى ما صار أمرُهُ وأشناسَ ففشِلَ ، وإيتاخَ فلا شيئَ ، ووصيفاً فلا معنى فيه[1] .

---

(١) سوف نقف على ذكر هؤلاء ، ونطلع على دور كل منهم .

فقلتُ: أحبيبُ على أمانٍ من غضبِك...؟

قال: نعم .

قلتُ له: يا أميرَ المؤمنين ، نظر أخوك إلى الأصولِ فاستعمَلها ، فأنجَبتْ واستعمل أميرُ المؤمنين فروعاً ، فلم تنجبْ إذ لا أصول لها .

فقال: يا إسحاقُ ، لمقاساةُ ما مَرَّ بي طولَ هذه المدةِ أيسرُ عليَّ من هذا الجوابِ .

وحُكيَ أن المعتصمَ قدِ انقطعَ عن أصحابِهِ في يومِ مطرٍ ، فبينما هو يسيرُ رحلَهُ إذ رأى شيخاً معه حمارٌ عليه حملُ شوكٍ ، وقد زلق الحمارُ وسقط ، والشيخ قائمُ ينتظرُ مَنْ يمرُ به فيعينُهُ على حملِهِ .

فسألهُ المعتصمُ عن حالِهِ ، فأخبرَهُ ، فنزل عن دابتِهِ ليخلصَ الحمارَ عن الوحلِ ، ويرفعَ عليه حملَهُ .

فقال له الشيخُ: بأبي أنتَ وأمي لاتبلّلْ ثيابَكَ وطيبَكَ .
فقال له: لاعليكَ ، ثم إنه خلَّصَ الحمارَ ، وجَعَلَ الشوكَ عليه وغسل يديه ، ثم ركب ، فقال الشيخُ: غفر اللهُ لك ياشاب ... !
ثم لحقَهُ أصحابُهُ ، فأمر له بأربعةِ آلافِ درهمٍ ، ووكَّلَ به من يسيرُ معه إليه ببيتِهِ[1] .

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير .

خلافتـــه:

بويع للمعتصم بالخلافة يوم مات أخوه المــأمون وذلــك يوم الخميس الثاني عشر من رجب سنة ثماني عشرة ومائتين . وكان قد سعى بعض الناس ومنهم الأمراء والمسئولون في إمارة العباس بن المأمون ، فرفض العباس ذلك ، وقال لهم: ما هــذا الخلف البارد...؟

أنا قد بايعت عمي المعتصم .

فسلف الناس ، وخمدت الفتنة . وبويع المعتصم خليفــة للمأمون ، وأصبح من تلك اللحظة أمير المؤمنين وجعل النــاس يطوفون البلاد يحملون نعي المأمون وبيعة المعتصم . حدث هذا كله بطرسوس(١) ، وهي المدينة التي توفي فيها الخليفة المأمون ، ثم ركب المعتصم وأمر الناس بــالعودة الــى بغــداد وصحبه العباس بن المأمون في موكب عظيم ، وجمــع غفــير وحشد كبير وأبهة لا مثيل لها .

وفي صبيحة يوم السبت في الأول من شــهر رمضــان المبارك دخل المعتصم بغداد في أبهة عظيمة ، وتجمل تام ليبــدأ بذلك صفحة جديدة ونمطا مختلفا من أنماط حياته .

---

(١) طرسوس: مدينة تيفور الشام بين إنطاكية وحلب وبلاد الروم ، انظر معجم البلادان: وهي اليوم تابعة لتركيا .

حروب المعتصم

لم يكد المعتصم يعتلي عرش الخلافة ، وبتسلم مقاليد الحكم حتى بدأت الأحداث المزعجة، والفتن المؤلمة تزعجه وتقلقه وتزلزل أركان دولته .

في هذه الظروف المؤلمة ، والفتن الكثيرة المتلاحقة استقبل أبو إسحاق المعتصم فجر خلافته ولكن لابأس عليه فهو لها أهل وبها جدير، وهو الخليفة المؤمن ذو البطش والقوة والمهابة العظيمة ، والنخوة الشديدة ، والشهامة الإسلامية والمروءة العربية والهمة العالية ، وهو الفارس القوي المدرب والشجاع الذي يحسب له ألف حساب ، والبطل الذي امتشق حسامه منذ طفولته وصباه مدربا في أحضان أبيه الرشيد وفي خلافة أخويه الأمين والمأمون ، وهو شاب يفيض قوة وحيوية ونشاطا لو وزعت على أمة لكفتها ومن كان كذلك لم يخش الأحداث والفتن ولا المشاكل والمحن مهما عظمت وتكاثرت ومهما يكن أهلها ودعاتها أولي قوة ، وأولي بأس شديد ، ومهما يكن عددهم وعدتهم ولذلك جعل المعتصم العلاج في الحزم وترك الحكم للسيف ، ولسوف نرى بيان ذلك متسلسلا.

أولا: حروب الزلي .

وهم قوم يعتنقون عقيدة فاسدة ، ويحملون أخلاقا قاسية يبغون الشر والفتنة ، ويحبون القتل والسلب والنهب ، وكان

القائمُ بأمرِهمِ والمسؤول عنهم رجلٌ يقالُ له: محمدٌ بنُ عثمـــان ومعه آخرُ يقالُ له: سماق ، وكلٌ منهما داهيةٌ فاجرٌ، وشـــيطانٌ ماكرٌ، فجاسوا خلالَ الديارِ وعاثوا في الأرضِ الفسادَ ، وقطعـوا الطرقاتِ،ونهبوا الغَلاتِ، وخلّفوا وراءَهُمُ الكـــوارثَ والويـــلات فبعث إليهمُ المعتصمُ عُجَيفَ بن عنيسةَ لحربِهم،وإخمادِ ثورتِهم .

فسار عُجَيفٌ حتى عسكرَ بواسط[1]، وأقام على نهرٍ يقالُ له بردودا ، وأخذ عليهمُ الطرق ، وسدَّ عليهم المســـالكَ ، ثـم انقضَّ عليهم وقاتلهم قتالاً شديداً قتل منهم في معركـــةٍ واحـدةٍ ثلاثمائةِ رجلٍ ، وأسَرَ خمسمائةِ آخريـــن ضـرب أعنــاقهم جميعـاً وبعث برؤوسهم إلى الخليفةِ المعتصمِ ، وأقام عُجَيـــفٌ بإزائِهمِ سبعةَ أشهر يغيرُ عليهم ، ويحاربُـــهم باســتمرارٍ حتـــى قضى عليهم وكسر شوكتَهم وأسر منهم سبعةً وعشرينَ ألفاً جـاء يقودُهم إلى بغداد ، وقد حملهم في السفن ، فأنزلوا في الجـــانبِ الشرقي ، فأمر المعتصمُ بنفيهم إلى رومةَ فأغـــارَتْ عليـــهمُ الرومُ فإجتاحوهم عن أخرهم ولم يفلِتْ منهم أحد .

قال ابنُ كثير في البدايةِ والنهايةِ: فكان آخرَ العهدِ بهم .

---

(١) واسط: في عدة مواضع ولعل المراد كما قال أبو حاتم: واســـط بالجزيرة فهي مقابل الرقة أو التي بقرقيسيا ، أو غيرهـــا.. انظـر معجم البلدان .

ثانيا: حروب بابك الخرمي .

قبل الحديث عن الحــروب التــي دارت بيــن الخليفــة المعتصم وبابك الخرمي ينبغي أن نلقي الضوء على هذا الأخــير ومذهبه للوقوف على عقيدته وفساد مذهبه.

مــذهبـــه .

يقوم مذهب بابك على الإباحة ، وهو المذهب المســمى (بالخرمية) ، وأتباعه صنفان:

صنف : منهم كانوا قبل دولة الإسلام كالمزدكية نســبة إلى (مزدك) وكان هؤلاء يستبيحون المحرمات ويزعمــون أن الناس شركاء في الأموال والنساء ودامت فتنة هــؤلاء الــى أن قتلهم أبو شردان في زمانه .

الصنف الثاني: الخرمدينية ، وهؤلاء ظهروا في دولــة الإسلام ، وهم فريقان: بابلية نسبة إلى بابك المذكور ومازيارية وكلتاهما معروفة بالمحمرة .

فالبابلية منهم: أتباع بابك الخرمي الذي ظهر في جبــل البدين بناحية أذربيجان وكثر بها أتباعه ،فاستباحوا المحرمــات وقتلوا الكثير من المسلمين ، فجهز إليه خلفاء بني العباس جيوشا كثيرة.. كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى .

وأما المازيارية منهم ، فهم أتباع مازيار الذي بن المحمرة بجرجان[1] وكانت فتنة مازيار قد عظمت في ناحيته إلى أن قبض عليه في أيام المعتصم كما سيأتي .

واتباع مازيار كانوا منتشرين في الجبال من سواد جرجان وعقيدتهم إظهار الإسلام ، وإضمار خلافه ، والله المستعان على أهل الزيف والضلال .

وللبابلية في جبلهم ليلة عيد لهم يجتمعون فيها على الخمر والزمر، وتختلاط فيها رجالهم ونساؤهم فإذا أطفئت سروجهم ونيرانهم افتض فيها الرجال والنساء على تقدير من عزبز.

وهم ينسبون أصل دينهم إلى أمير كان لهم في الجاهلية اسمه (شردين) ويزعمون أن أباه كان من الزنج ، وأمه بعض بنات ملوك الفرس .

ويزعمون أن شردين كان أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم ومن سائر الأنبياء ، وقد بنوا في جبلهم مساجد يؤذن فيها المسلمون ، وهم يعلمون أولادهم القرآن ، لكنهم لا يصلون

---

(١) جرجان: مدينة عظيمة مشهورة بين طراسان وخراسان .
قيل : أول من أحدث بناءها يزيد ابن المهلب بن أبي صفرة. انظر معجم البلدان .

في السر ، ولا يصومون في شهر رمضان ولا يـــرون جـــهاد الكفرة[1].

---

(١) الكفرة: انظر الفرق بين الفرق .

من هو بابَكُ الخرّميُّ..؟

بابَكَ: رَجلٌ فارسيٌ مجوسيٌ الأصل ، دخل في الإسلام ، وسّميَ الحسنَ ، وقيل: الحسين، وكان قويَّ النفس شديدَ البطشِ، صعبَ المراس ، وكان قد حدثتْهُ نفسُهُ الخبيثةُ باسترجاعِ ملكِ فارسَ ودينِها فاستعمهم بالجبلِ المعروفِ بالبدينِ من أصل الرانِ .

وفي سنةِ ٢٠١ هـ وفي عهدِ الخليفةِ المأمونِ أظهَرَ أمرهُ و أعلَن عصيانَهُ ، فجهز له المأمونُ جيشاً بقيادةِ محمدِ بنِ حُمَيدٍ الطوسي ، فلم يستطع جيشُ المأمون أن يصمدَ في وجهِ بابَكَ وجيشِهِ ، فانهزم بعد مقتلِ قائدهِ محمدِ بنِ حُمَيدٍ الطوسي ، وفي سنةِ ٢٢٠هـ وفي خلافةِ المعتصمِ جهزَ له جيشاً بقيادةِ الأفشينِ.. كما سيأتي إن شاء اللهُ تعالى .

وأما مازّيارُ فسوف يأتي الحديثُ عنه لاحقاً بعون الله تعالى .

تقدم معنا أنَّ أولَ ابتداء خروجِ بابَكَ كان سنةَ إحدى ومائتين في مدينةِ (البذ)[1] وهزم من جيوشِ السلطانِ عدةً وقتل من قوادهِ جماعةً ، فلما انتهى أمرُ الخلافةِ إلى المعتصمِ وجه

---

(١) البذ: كورة بين أذربيجان وأوران . انظر معجم البلدان

وجه إليه عدة جيوش ، كان أولها جيش محمد بن يوسف الـــذي كان يكنى أبا سعيد .

فقد أمره المعتصم أن يتوجـــه إلـــى أردبيــل[1] ، وأن يتمركز فيها ويعيد بناء الحصون التي خربها بـــابك فيمـــا بيـــن زنجان[2] وأردبيل ، ففعل ، فكانت سرايا بابك تغير على بعــض تلك النواحي فتضرب وتقتل وتسرق ، فجمع أبو ســـعيد جنـــوده وخرج في طلب السرية ، فالتقى بها في بعض الطرق ، فـاقتتلوا قتالا شديدا انتهى بمقتل جماعة كثيرة من أصحاب بابك وأســـر جماعة أخرى واستعادة ما كانوا أخـــذوه فبعـــث أبـــو ســـعيد بالرؤوس والأسرى الى المعتصم ، فكانت هذه أول هزيمة تـنزل ببابك وأصحابه.

---

(٢) أردبيل: مدينة من أشهر مدن أذربيجان ، انظر معجم البلدان

(٣)زنجان: بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان ، وهي قريبة من أبهر وقزوين ، انظر معجم البلدان .

بأبَكُ ومحمدُ بنُ البُعَيثِ

وكانت وقعةٌ أخرى بين بابَكَ ومحمدِ بنِ البُعَـــثِ ذلــك مصالحاً لبابَكَ تنزلُ سراياه عنده فيضيفُهم حتـــى أمِنـــوا بـــه فجعل بابَكَ يستعملُ المكرَ والخديعةَ ، فبعث إليـــه قـــائداً اســـمُهُ (عصمة) في سريهِ ، فنزل بسريته علـــى ابـــنِ البُعَيـــثِ الـــذي استضافه على عادتِهِ ، فلما تناولوا الطعامَ ، سقاهُمُ أبنُ البُعَيـــثِ الخمرَ حتى سكروا ، ثم وثَبَ على عصمةَ فأوثَقَهُ وقَتَلَ مَنْ كـــان معه من أصحابهِ وسَيَّرَ عصمةَ إلى المعتصمِ الذي أخـــذ منـــه معلوماتٍ كافيةٍ عن بابَكَ وبلادِهِ وطرقِهِ وجيشِهِ ، ثم زجَّهُ فـــي السجنِ فبقي محبوساً الى أيام الواثِقِ .

بابك والأفشين

من هو الأفشين..؟ هذا لقبه ، أما اسمه فحيدر ين كاوس ، أصله فارسي من أبناء الأمراء أو خيزر .

لقد كان من أمره أن اختاره المعتصم لبلائـــــه وحســـن خدمته ، وطاعته فانتهى به الأمر أن وكل إليه المعتصم مقاتلـــة بابك الخرمي ، وسوف يأتي الحديث عنه وعن حروبه مفصـــلا أن شاء الله تعالى .

هذا.. وقد اختلف المؤرخون في أمـــرِهِ فيذكـــرُ بعضُهم أنه كان قدِ انقلب على المعتصمِ وتآمر على دولةِ الإسلامِ ، ودعا سراً إلى الانقضاضِ على الخلافةِ لإســـقاطِها ، وكـــان يساعدُهُ على ذلك (مازيّار) الذي ســـيأتي الحديـــثُ عنــــه ، وأنّ مازيّارَ هذا هو الذي أقَرَّ عليه أنه حثَّه على الخروج والعصيانِ.

ومنهم مَنْ يذكرُ أنَّ القاضيَ أحمدَ بنَ أبي دؤادَ هو الـذي كاد له عند المعتصمِ ومازال به حتى أخذه وصلبه وأحرقـــهُ .

ويقولُ التبريزي في شرحِ ديوانِ أبي تمامٍ:

لم يكنِ الأفشينُ كافراً ولا منافقاً ، وإنما كان رجلاً مـــن الفرسِ فنعشهُ المعتصمُ ، وقد مدحه أبو تمامٍ بقصــــائدَ غـــيرَ أن الحسادَ أفسدوا ما كان بينهما ، فذكروا للمعتصمِ أنه منطوٍ علـــى خلافِكَ ، وصوّروه عنده بصورةِ المُعادين له ، وقالوا للأفشـــينِ:

إنَّ أميرَ المؤمنين عليه فتحقق المعتصمُ بانقباضِهِ ما كان أُخبِرَ به عنه ، فأخذه وصلبه وأحرقهُ وانتهى.. واللهُ اعلم .

المعركة الأولى بين بابَكَ والأفشينَ

ذلك أنّ المعتصمَ بعث بُغا الكبير إلى الأفشينِ الذي انتدبَهُ المعتصمُ لقتالِ بابَكَ الخُرّميِ ، ورصدِ تحركاتهِ، والتعُّوفِ على طرقاتِهِ ومواقِعِهِ .

وأعطاه مالاً كثيراً للجندِ والنفقاتِ ، فلما وصل بغا الكبيرُ أرَدْبيلَ بلغ الخبرُ بابَكَ فجاء جاسوسٌ إلى الأفشينِ فأخبره خبرَ بابَكَ .

فكتب الأفشين إلي بُغا أنْ يريدُ الرحيلَ ، ويحملَ المالَ على الإبلِ ويمضِ نحوه حتى يبلغَ حصنَ النهرِ .

وانطلق الأفشينُ بجنودهِ سراً لم يضربْ طبلاً ولم ينشْر علماً ، ولم يرفعْ رايةً وأمرَ الناسَ بالتزامِ الصمتِ والحذرِ .

سار بابَكُ مع أصحابهِ على طريقِ النهرِ ، وهو يظنُ أنَّ المالَ يصادفُهُ ، فلما بلغ حصنَ النهرِ دخل هيثمُ الغنويُ الحصنَ ونزل بابَكُ أمامهُ ، ووَضِعَ له كرسيٌّ وأرسل إلى الهيثمِ أنْ خلّي الحصنْ وانصرِفْ ، فأبى الهيثمُ ذلك ، فحاربهُ بابَكَ وهو يشربُ الخمرَ على عادتِهِ والحربُ مشتعلَة.

أمّا الأفشينُ فقدِ التقى في طريقهِ بفارسين ، فقال لصاحب مقدميَهِ: أرى فارسين يركضان ركضاً شديداً ثم قال: اضربوا الطبلَ ، وانشروا الأعلامَ وارفعوا الراياتِ واركضوا نحوهم

وصيحوا : لبيكما.. لبيكما ...! ففعلوا ذلك ، وأجـرى النـاسُ خيلَهم حتى لحقوا ببابَكَ وهو جالسٌ فلم يستطِعْ أن يركبَ حتـى وافتْهُ ، الخيلُ ،اشتبَكتِ الحربُ ، وقامَتْ على ساقٍ ، فلم يُفلِـتْ من رجالِ بابَكَ إلا القليلُ ، وأفلِتَ هو في نفرٍ يسيرٍ من فرسـانه ، ودخل (موقان[1]) وقد تفرق أصحابُهُ فـي الشـعابِ ورؤوسِ الجبالِ .

---

(١) موقان: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة، وهي بأذربيجـان يمـر القاصد من أردبيل إلى تبريز في الجبال. انظر معجم البلدان .

سقوط عاصمة بابك

دارت حروب كثيرة وقاسية بين الأفشين وبابك من جهة ، وبين بابك وبغا الكبير من جهة أخرى قاسى المسلمون فيـــها أقسى ألوان المعاناة حيث أصابهم في خروجهم ذلك برد شـــديد وثلج كثير ، وصلوا إلى حالة لايستطيع أحدهم أن يتناول المـــاء أو يسقي دابته من شدة البرد ، وكثرة الثلـــج ، وكثافـــة الجليـــد فقالوا:

قد فنيَ ما معنا من الزادِ ، وأضَـــرَّ بنـــا الـــبردُ ، إمـــا راجعين إلى بلادنا ، وإما إلى ملاقاةِ الكافرِ .

وبلغتِ الأنباءُ المعتصمَ تحملُ اليه مقاساةَ الجندِ من الثلجِ والـــبردِ ومعاناتَهُمُ الشديدةَ من الجوع والتعبِ ، فجهز جيشاً كثيفاً وبعثَـــهُ مدداً للأفشينِ ، وبعثت إليه ثلاثين ألفَ ألفَ درهمٍ نفقـــةً للجنـــدِ وأمره أنْ يحسمَ أمَر بابَكَ ، وينتهيَ منه إما بقتلهِ أو بأسرهِ .

فانقضَّ الأفشينُ بجنودِهِ على مدينةِ البذِ ، وهي عاصمـــةُ بـــابَكَ ودارَتْ بين الفريقين معركةٌ شديدةٌ وحاميةٌ انتهتْ بهزيمةِ بـــابَكَ وجنودهِ ، وسقوطِ مدينةِ البذِ التي دخلها الأفشينُ واستباح ما فيها بعد حصارٍ طويلٍ وصبرٍ كبيرٍ ، وقتالٍ شديدٍ .

القبض على بابَكَ

دخل المسلمون مدينةً البـــذِ بقيـــادة الأفشـــينِ فـــاتحين منتصرين ، واحتووا على ما فيها من أمـــوال وســـلاحٍ وعتـــادٍ تركها بابَكَ وجنودُهُ غنيمةً للمسلمين .

هذا.. وكان بابَكَ قد هرب بمن معه من أهلِهِ وولده ومعه أمُـــهُ وامرأتُهُ فلاذا بمكان بعيدٍ في الجبلِ في شرذمةٍ قليلةٍ من جنـــودِهِ الذين نجوا من سيوف المسلمين .

وبات بابَكَ في مخبئهِ فترةً نفذ ما لديه من طعام وشراب ، مقاسياً ألمَ التعبِ والجوعِ والخوفِ والعطـــشِ فشـــاهد فلاحـــاً يحرثُ الأرضَ ، فبعث غلامَهُ وأعطاه ذهباً وقال له: اذهبْ إلـــى ذلك الفلاحِ وأعطِهِ الذهبَ ، وخذ ما معه مـــن طعـــامٍ ، ففعـــل فنظر شريكُ الفلاحِ من بعيدٍ فأبصَرَهُ وهو يأخذُ منه الخبزَ فظـــنَّ أنه قدِ اغتَصبهُ منه فذهب إلي حصنٍ قريبٍ منـــه فيـــه نـــائبٌ للخليفةِ يقالُ له (سهلُ بنُ سنباطَ) فنقل إليه خبرَ الغلامِ والفـــلاحِ فركب سهلٌ وذهب بنفسهِ ليستعرضَ الموقفَ ، فرأى الغلامَ فقال له:

ما خبرُك...؟

قال: لاشيءَ ، إنما أعطيتُهُ دنانيرَ وأخذتُ منه الخبزَ.

فقال: ومَنْ أنتَ...؟

فأراد أن يكتمَ أمرَهُ ويعمّيَ عليه الخبرَ.

ولكن سهلاً ارتاب منه ودخله شيئٌ من أمرِه فأصر عليه وهَّدَده بالقتلِ إن لم يبحْ إليه بأمرِهِ ، فاعترف له وقال: أنا من غلمانِ بابَكَ.

فقال: وأين هو الآن ...؟

قال: هاهو ذا جالسٌ يريدُ الغداءَ .

فمضى سهلٌ نحوه وتظاهر أنه مشفقٌ عليه ، وأنه من أتباعِهِ فلما رآه ترجَّلَ وقبَّلَ يدَهُ وقال له: ياسيدي ، أين تريدُ...؟

قال: أريدُ أن أدخلَ بلادَ الرومِ .

قال سهلٌ: الى مَنْ ستذهبُ أقنَعَ من حصني وأحرزُ وأنا غلامُكَ وفي خدمتِكَ...؟

وما زال به سهلٌ حتى خَدَعَهُ وأخذه الى الحصنِ، فأنزله عنده وأجرى عليه النفقاتِ الكثيرةَ ، والتحفَ الثمينةَ ليجعلهُ يحسُ بالأمانِ فلا يدخلُ الى نفسِهِ ريبٌ أو شكٌ فيخشاهُ .

هذا ... وكتب سهلٌ الى الأفشينِ يُعلمُهُ بأمر بابَكَ فأرسل إليه أميرين وبعضَ الجندِ للقبضِ عليه ، وأراد سهلٌ أن يزيدَ من مؤانسةِ بابَكَ ، فقال له:

إنه قد حصل لك همٌ وضيقٌ من هذا الحصن وقد عزمتُ على الخروجِ اليومَ الى الصيد ومعنا بزاةٌ وكلابٌ ، فإنْ أحببتَ أن تخرجَ معنا لتشرحَ صدركَ وتُذهيبَ همَّكَ فافعلْ .

فأجابه بابَكَ الى ذلك ، فخرجوا ، فأرســـل ســـهلٌ الـــى الأميرين أن يلتقيَ بهما في مكانٍ كذا وكذا في وقت كــذا وكــذا فأقبل الأميران بمَن معهما من الجنودِ فأحاطوا ببابَكٍ ، وهـــرب سهلٌ ، فقالوا له: ترجّلْ عن دابتك .

فقال: ومَنْ أنتما...؟

فقال: إنهما من قِبَلِ الأفشين ، فنظر بابَكُ إليه والشـــرُ يتطايرُ من عينِهِ ونظراتُ الحقدِ والغضبِ تكادُ تقتلعُ سهلاً مـــن الأرضِ ، فقال لـــه: قبحـــك اللهُ ، فهّلا طلبتَ مني من المالِ مـا شئتَ كنتُ أعطيتُك أكثرَ مما يعطيكَ هؤلاء .

ثم أخذوه وانطلقوا به إلى الأفشينِ ، فلما اقـــتربوا منـــه خرج فتلقّاه ، وأمَرَ الناسَ أن يصطفّوا صفّيف وأمـــر بـــابَكَ أن يترجّلَ فيدخلَ بين الناسِ وهو يمشي على رجليه ، ففعـــل ذلـــك وكان يوماً عظيماً مشهوداً جداً ، ثم أمر به فزُجَّ فـــي الســـجنِ وكتب إلى المعتصم بذلك فأمَرَهُ أنْ يقدِمَ عليه به وبأخيه ، وكان قد أمسكهُ أيضاً وكان اسمَ أخيه عبدُ اللهِ ، فجَهّزَ الأفشينُ بـــهما ليصَحَبهما معه الى الخليفةِ المعتصمِ .

وكان اللأفشينُ قدِ استخلَصَ نساءً كثيرةً وصبياناً كثـــيراً ذكروا أن بابَكَ أمرهم وأنهم أحرَرٌ من العربِ والدّهاقين فـــأمر بهم فجعلوا في حظيرةٍ ، كبيرةٍ ، وأمرهم أن يكتبوا إلى أوليائـــهم

فكلُ مَنْ جاء يعرفُ امــرأةً ، أو صبيــاً ، أو جاريــةً ، وأقــام شاهدين أخذهُ ، وهكذا رجعوا جميعاً إلى أهليهم وذويهم .

قدوم الأفشين ببابك

إلى المعتصم

في صبيحة يوم الخميس الثالث من صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين قدم الأفشين على المعتصم يقود بابك الخرمي وأخاه في تجمع رهيب وجماهيرية كثيرة لم تشهد سامراء ،مثلها حشدا وتجمعا ، خرجوا ليشهدوا دخول بابك الخرمي سامراء ذلك الذي أتى بعقيدة فاسدة أفسد على الناس معتقداتهم ، وهدم الأخلاق ونشر الرذيلة ، واستباح الأعراض والأموال ، وعاث في الأرض الفساد ، لم يرع ذمة ، ولم يحفظ عهدا ، ولم يخش وعدا ولا وعيدا .

هذا ... وكان المعتصم قد أمر ابنه هارون الواثق أن يستقبل الأفشين ، وكانت أخباره يغد إلى المعتصم كل يوم من شدة اهتمامه بأمر بابك ، فلما بلغ الأفشين سامراء أمر بابك على فيل ليشرف على الناس ويعرفوه وكانوا قد أعدوا الفيل وخضبوا أطرافه وألبسوه الحرير والأمتعة الفاخرة ، وفي ذلك قال بعضهم :

قد خضب الفيل كعاداته	والفيل لاتخضب أعضاؤه
يحمل شيطان خراسان	إلا الذي شأن من الشان

ولما احضر بين يدي المعتصم أمر بقطع يديه ورجليـــه وجز رأسه ، وشق بطنه ، ثم أمر بحمل رأسه إلـــى خراســان وصلب جثته على خشبة بسامرا .

وكان بابك قد شرب الخمر ليلة مقتلـــه ، وكــان هــذا الملعون قد قتل من المسلمين في مدى عشرين عاما عددا كبــيرا وأسر عددا لا يحصى ، وكان حملة من استنقذه الأفشـــين مـــن أسره نحوا من سبعة ألاف وستمائة إنسان .

ثم أراح الله تعالى منه العباد والبلاد بعدما افتتف به خلق كثير ، وجم غفير من عوام المسلمين وغيرهم علـــى اختــلاف مللهم ونحلهم .

مكافأةُ الأفشين

ولقد أكرمَ المعتصمُ جميعَ من شارك في القبضِ على بابَك ، وخلع عليهم من عطاياه ما يجلُّ عنِ الوصفِ فتَّوج الأفشينَ وقلَّدَه وشاحين من جوهرٍ، وأطلق له عشرين ألفَ ألفَ درهمٍ ، وكتب له بولايةِ السند وأمر الشعراءُ أن يدخلوا عليه فيمدحوه على ما فعل من خيرٍ للناس ، وما قدم من خدمةٍ للدين والعقيدةِ ،وعلى ما فعله من تخريبٍ ببلاد بابَك وتركهِ إياها قيعاناً خراباً .

وأمَرَ لسهلٍ بنِ سنباطَ الذي دلَّ عليه وأمكَنَ الجندَ منه بألفِ ألفِ درهمٍ ، ومنطقةً مغرقةً بالجواهر ، وتاجَ البطرقةِ .

وفي مدحِ الأفشينِ قال الشعراءُ فأحسنوا ، وكان من جملتِهم أبو تمامٍ الطائيُّ الذي قال في مدحهِ في قصيدةٍ طويلةٍ منها :

بذَّ الجلادُ البذَّ فهو فَيِنُ ... ما إنْ بها إلا الوحوشُ قطينُ[1]

---

(١) بذَّ القومَ يبذهم بذاً: سبقهم وغلبهم ، والبذ الثانية: اسم كورة من كور بابك الخرمي. والجلاد : القتال ، وقطين : جمع قاطن وهو المقيم ، والجمع قُطّانٌ وقَطُنٌ . المعنى: أن القتال أودى بأهل مدينة البذ فلم يُبق فيها أحداً وجعلها مسكناً للوحوش بعد أن باتت قفراً من أهلها .

لم يفْرِ هذا السيفُ هذا الصيرفيُّ هيجاءَ إلا عزَّ هــذا الدينُ

قد كان عذره سودَءِ فامتشقها بالسيف فحلُ المشرقِ الأفشينُ

فأعادها نعوي الثعالبُ وسطها ولقد تُرى بالأمسِ وهي عرينُ

هَطَلَتْ عليها من جماجمِ أهلِها دمَيمٌ إمارتُها طُلى وشؤونُ

كانت من المهجاتِ قبل مغازةٍ عُشراً فأصبحَتْ وهي منه منيفُ

وفي هذه المناسبةِ قام إبراهيم بنُ المهدي فقال يمدحُ المعتصمَ :

يا أمين اللهِ إن الــ حمدَ لله كثيرا

هكذا النصرُ فلازا ل لك اللهُ ناصرا

وعلى الأعداء أُعط تَ من اللهِ ظهيرا

وهنيئاً هيَّأَ اللهُ لك الفتحَ الخطيرا

فهو فتحٌ لم يرَ النا سُ له فتحاً نظيرا

وجزى الأفشينَ عبدا للهِ خيراً وحبورا

فلقد لاقى بــه بــا بَكُ يوماً متمطـ يرا

ذاكَ مولاكَ الذي ألــ فيتَهُ جَلْداً صبورا

لك حتى ضرَّج السيفُ له خدّاً نضيرا

ضربةً ألفَتْ على الدهرِ له في الوجهِ نورا

وكما توَّجَ المعتصمُ الأفشينَ بتاجٍ من الذهــبِ مرصــعٍ بالجواهرِ ، وخلع عليه من العطايا ، وأغدق عليه من الأمــوال والهدايا ما ذكر فيما تقدَّم ، كذلك زوَّجَ الحسنَ بنَ الأفشينِ بــ (أترجةَ) بنت أشناسَ أحدِ قوادِ جيشِــهِ وزُفَّــتْ إليــه بحضــورِ المعتصمِ الذي أقام لها عرساً كبيراً دعا اليه الســادةَ والــوزراءَ

والقادةَ والأمراءَ ، وأنفقَ فيه من الأموالِ ما يتناسبُ مع قدرِهـــا في البهاءِ والجمالِ وكانت توصفُ بالجمالِ والكمالِ .

وكما كان من ليلةِ الزفافِ ما عمَّ سرورُهُ العامَّ والخاصَّ ، قام المعتصمُ شخصياً فقال أبياتاً يصـــفُ حُسْنَ العروسَـين وجمالَهما واجتماعَهما ، وهي :

زُفّتْ عروسٌ الى عروسٍ ... بنتِ رئيسٍ الى رئيسِ

أيهما كان ليتَ شعري ... أجلّ في الصدورِ والنفوسِ

أصاحبُ المرهفِ المحلّى ... أم ذو الوشاحين والشموسِ

هجومُ الرومِ على زِبَطْرةَ

وكان من أسبابِ ذلك الــهجومِ ، العــداءُ القديــمُ بيــن المسلمين والرومِ ، والإغاراتُ الكثيرةُ والمتكررةُ من الفريقيــن كلٌ منهما على الأخرِ، أضيفْ إلى ذلك ما كان من بابَكَ الخرَّمي حين حاصره الأفشينُ في مدينةِ البّذِ وضيَّقَ عليه حتى يئسَ مــن النجاةِ وأشرف على الهلاك في هذه الظروفِ القاسيةِ كتب بــابَكٌ إلى توفيلَ ملك الرومِ يقولُ فيه: إن المعتصمَ ملكَ العربِ قد وجَّهَ عساكرَهُ إلى بلادِك يريدُ أن يهجمَ عليكَ على حينِ غِرةٍ ، فــإنْ أردتَ الخروجَ إليه فليس في وجهك أحدٌ يمنعُك .

وكان بابَكُ يعتقدُ أن ملِكَ الرومِ إن تحرك بجيشِهِ انكشف عنه بعضُ ما هو فيه بتحويلِ بعضِ جنودِ الأفشينِ إلــى صــّدِ هجومِ الرومِ فينفكُّ عنه الحصارُ ويخرج مما هو فيه من شــدةٍ وضيقٍ .

فجهز توفيلُ جيشهُ وخرج على رأسِ مائةِ ألفِ مقاتلٍ وانضمَّ إليه الجنودُ الذين كانوا في الجبال لقتــالِ إســحاقَ بــنِ إبراهيم مصعب ، وكانوا متحصنين في الجبال فلم يقدِرْ عليــهم إسحاقُ بنُ إبراهيمَ ، فلما خرج توفيلُ ملكُ الروم انضموا إليــه فازداد بهم قوةً ومنعةً .

وانضمَّ إليه ملوكُ برجانَ والبلغارِ والصقاليةِ وغـــيرُهم ممن جاورهم من ملوكِ الأممِ الذين يريدون الشَّر بالمســلمين ، فهجموا على مدينةِ زِبَطْرةَ[1] من الثغرِ الخـــزري[2] فافتتحوهــا بالسيف ، وقتلوا الصغيرَ والكبيرَ وسبوا ونهبوا وأحرقوا المنازلَ ، وهدموا المساجدَ وعاثوا في الأرضِ الفسادَ ، وأغــاروا علــى بلادِ ملطيةَ وما والاها من البلادِ ، وفعلوا فيها كما فعلوا بزِبَطْرةَ من قتلٍ ونهبٍ وأسرٍ وهدمٍ وحرقٍ...الخ .

وكان من جملةِ ما أسروا ألفُ أمرأةٍ من المسلماتِ ومثّلــوا بالأسرى من الرجالِ بصفاقةٍ ووحشيه .

فقطعوا أذُنَهم وأنوفَهم ، وسحلوا أعينَهم ، ومثلوا فيـــهم تمثيلاً فظيعاً ، وأنزلوا فيهم مقتلةً وبشعةً تقشعرُ لذكرِها الأبــدانُ ويشيبُ لها الوِلدان .

لقد تركوا البلادَ قاعاً صفصفاً لاترى فيـــها عوجــاً ولا أمتى ، وأشعلوا فيها النيرانَ التي أتَتْ على كل سيئٍ فجعَلَتْهُ

---

(١) زبطرة: بكسر الزاي ، وفتح الباء وسكون الطـــاء بعدهــا راء مهملة: مدينة بين ملطية وسُمَيْاط والحدث في طرفِ بـــلادِ الــروم. انظر معجم البلدان.

(٢) أي من بلاد الخزر.

كهشيمِ المحتضِرِ ، تدمى لرؤيتِهِ القلوبُ وتذرفُ لــــه العيــونُ ، وتسلبُ عليه دمعاً حزيناً مدراراً .

ففجَّ الناسُ في الأمصـارِ ، واستغاثوا في المساجد والديارِ ووردتْ على المعتصمِ الأخبارُ ، أنّ أمرأةً مسلمةً استغاثَتْ بــــه ونادتْ وهي أسيرةٌ في أيدي الرومِ (وامعتصِماه) فأجابها وهــو جالسٌ على سريرِهِ : لبّـــيك.. لبّـــيك..!!

وجعل إبراهيمُ بنُ المهدي يثيرُ حماسَهُ ويفخرُ أحاسيسَـــهُ ، ويحثُّهُ على الجهادِ ، ويحضُّهُ على استخلاصِ الأسرى وإغاثـــةِ الثكالى ، وألقى بين يديه قصيدةً طويلةً قال فيها:

يا غارةَ الله قد عاينتِ فانتهكي هُتِكَ النساءُ وما منهنَّ يرتَكَبُ

هبِ الرجالَ على أجرامها قُتِلَتْ ما بال أطفالها بالذبحِ تنهَبُ

ويروي أن إبراهيمَ بنَ المهدي أولُ مَنْ قال في شعرِهِ: (ياغـــارةَ اللهِ) وتصايحَ الناسُ في كلِ مكان ، وتثرتْ في نفوسِهِمُ النخـــوةُ العربيةُ ، والشهامةُ الإسلاميةُ ، وتفجَّرَتْ من جوانِبِـــهِم ثـــورةُ الحماسِ ، وعظُمَ في قلوبِهِمُ الشعورُ بالواجبِ الديني والوطنــــي وجعلوا ينادون في اندفــاعٍ وحمـــاسٍ... اللهُ أكـــبرُ... اللهُ أكـــبرُ فأجابهمُ المعتصمُ :

اللهُ أكبرُ... اللهُ أكبرُ ، ونهض من فورِهِ ونادى بــــالنفيرِ وأمــر بتعبئةِ الجيوشِ ، وقبولِ المتطوعين الراغبين بالثأرِ ، والطامعين بالشهادةِ ، فأجتمع له عددٌ كبيرٌ من الشبابِ والشيوخِ والصبيـــانِ والنساءِ ، واستدعى القضاةَ والشهودَ فكتب لهم أنّ جميــــعَ مـــا

يملكه من الضياع والأموال ثلثه صدقة في ســـــبيل الله ، وثلثـــه لمواليه وأشهد على ذلك .

وأقسم من مكانه أن ينزل بالروم أشد وأقسى مما أنزلوه بالمسلمين ، وأن يثأر لكل ثكلى وأرملة ويتيم ومفجوع .

التوجُهُ الى عموريةَ

في صبيحةِ يوم الأثنين الثاني من جمادى الأولى سنةَ ثلاث وعشرين ومائتين خرج المعتصمُ بجيشِهِ من بغدادَ فعسكر قريباً من نهرِ دجلةَ في الجهةِ الغربيةِ منه وأرسل أمامهُ عُجَيفَ بنَ عنبسةَ وطائفةً من القادةِ والأمراءِ ، ومعهم عددٌ من الجنودِ والفرسانِ عوناً لأهلِ زِبَطْرةَ ، فأطلقوا يسرعون الخُطى ويغذّون السيرَ حتى بلغوا زِبَطْرةَ فلم يروا فيها سوى الخرابِ والدمارِ والدخانِ والرمادِ والوحوشُ الكاسرةُ ، والطيورُ الجارحةُ تمزقُ جثَثَ القتلى وتلتهمُها بشراسةٍ مذهلةٍ ، ووحشيةٍ فظيعةٍ ، فلووا أعناق خيولِهم ، وانشمروا راجعين إلى أميرِ المؤمنين المعتصمِ لإعلامهِ بما وقع من الأمرِ وليصفوا له ما رأوه ، فغضبَ غضباً شديداً وأوقدَتْ نارُ ثورتِهِ وجحظَتْ عيناه ، واحمرَّ وجهُهُ وانتفخَتْ أوراجُهُ وغدا كأنه كتلةٌ متقدةٌ من الجمرِ لا تأتي على شيءٍ إلا أحرقتْهُ رماداً .

وبينما هو في ثورتِهِ وانفعالِهِ يحّدقُ بعينيهِ ويضغطُ على أسنانِهِ إذ انطلق لسانُهُ قائلاً : أيُّ بلادِ الرومِ أمنعُ...؟

قالوا: عموريةُ ، لم يعرضْ لها أحدٌ منذُ فجرِ الإسلام ، وهي أشرفُ عندهم من القسطنطينيةِ .

فقال: إذن إلى عموريةَ ، انطلقوا على بركةِ اللهِ واللهُ معنا ، والنصرُ لنا بعونِ اللهِ تعالى .

وجعل المسلمون يردون خلفَهُ: اللهُ اكبرُ... اللهُ أكـــبرُ... اللهُ معنا ، والنصرُ لنا ، هذا ... والعلمـــاءُ يرفعـون أصواتـــهم بالدعاءِ وتلاوةِ القرآنِ وترديد آياتِ الجهاد والحثِ على الصـــبرِ والثباتِ فإنما هي إحدى إما النصرُ أو الشــــهادةُ ، فـلا تـــهنوا وتدعوا إلى السَّلْمِ وأنتمُ الأعلون واللهُ معكم ولن يَتَرِكُمْ أعمالكم[1]

(قد كان لكم أيةٌ في فئتين التقتا فئةٌ تقاتلُ فـــي ســبيلِ اللهِ وأُخرى كافرةٌ يرونهم مثْلَيهمَ رأيَ العينِ واللهُ يؤيدُ بنصرهِ مَـــنْ يشاءُ إنَّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار)[2].

(فلْيقاتلْ في سبيلِ اللهِ الذين يشرون الحياةَ الدنيا بـــالآخرة ومَنْ يقاتلْ في سبيلِ اللهِ فيُقتَلْ أو يَغلِبَ فســـوف نؤتيـــه أجـراً عظيماً)[3] .

(الذين آمنوا يقاتلون في سبيلِ اللهِ والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوتِ فقاتلوا أولياءَ الشيطانِ إنَّ كيدَ الشيطانِ كان ضعيفاً)[4]

(يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفارِ وليجــدوا فيكـم غِلظةً واعلموا أنّ اللهَ مع المتقين)[5] . صدق الله العظيم

---

(١) الآية /٣٥/ من سورة محمد .

(٢) الآية /١٣/ من سورة آل عمران .

(٣) الآية /٧٤/ من سورة النساء .

(٤) الآية /٧٦/ من سورة النساء .

(٥) الآية /١٢٣/ من سورة التوبة .

بهذه الروحِ العاليةِ ، والعقيدةِ الصافيةِ ، والنيةِ الصادقةِ والأيمانِ الخالصِ العميقِ انطلق المعتصمُ يقودُ جنودُ إلى معركةِ الشرفِ والكرامةِ ، إلى معركةِ النبلِ والشهامةِ ، إلى معركةِ الثأرِ لإحقاقِ الحقِ وإبطالِ الباطلِ ، لنصرةِ المظلومِ وردعِ الظالمِ ، لإنصافِ الضعيفِ وإقامةِ القصاصِ العادلِ .

وكان المعتصمُ قد أعدَّ من لهذه المعركةِ الهامةِ والمصيريةِ جيشاً لم يعدَّهُ أحدٌ من قبلُ ، وتجهز جهازاً لم يجهزهُ أحدٌ كان من قبله من الخلفاءِ ، واصطحب معه من معداتِ الحربِ والأحمالِ ، والجمالِ والقربِ والدوابِ والخيلِ والبغالِ ما لم يُسَمعْ بمثِلهِ في تاريخ القادةِ والمقاتلين ، ومضى إلى عموريةَ في جحافلَ أمثالِ الجبالِ ، وانطَلَقتْ تدكُّ الأرضَ تحت أقدامِها دكاً فأحدثتْ رجةً عنيفةً تجاوبتْ أصداؤها أركانَ الأرضِ وخلقت خوفاً وهلعاً في نفوسِ من سمعها ، وألقتْ في قلوبِهمُ الرعبَ من مفاوزَ بعيدةٍ ، وأخذوا يتسألون في قلقٍ واضطرابٍ عن مصدرِ هذه الرجةِ التي ملأتْ قلوبَهم فرقاً ، وملأت جوانبَهم دهشةً ورهبةً ، وجعلتهم يغرّون أمامها كالطغيانِ الشاردةِ دون أن يعلموا مَنْ هم ومنْ يقصدون ، ومَنْ أين قدموا ، والى أين يذهبون...؟

تعبئة الجيش

هذا... وكان المعتصم قد عبأ جيشه على الصغة التي تقدمت ، ثم أخذ يعين القادة على تعبئة الجيش فكان على الشكل التالي:

لقد جعل على مقدمة الجيش فارسا كبيرا يقال له: أشناس التركي ، ويتلوه محمد بن إبراهيم .

وعلى الميمنة فارسا آخر يقال له: إيتاخ التركي .

وعلى الميسرةِ جعفرَ بنَ دينارِ الخياط .

وعلى الساقة[1] بُغا الكبيرَ ، ويتلوه دينارُ بنُ عبدِ الله .

وعلى القلب عُجَيفَ بنَ عنبسةَ ، وجميعُ هؤلاءِ فرسانٌ أشداءُ لا يُشَقُ لهم غبارٌ ، ولايقومُ أمامَ أحدِهم جيشٌ ، بل إن أحدهم يعدِلُ جيشاً بكامِلِهِ .

وأرسل المعتصمُ الأفشينَ أمامه ، وأمره أنْ يدخلَ من درب الحَدثِ ، وحدَّد له يوماً يكونُ دخولَهُ فيه ويوماً يلَونُ اجتماعُهُم فيه .

وأرسل أشناسَ عن طريقِ طرسوس ، وأمرَهُ بأنتظارِهِ في مكانٍ يقالُ له: الصفصافُ ، وذلك في شهرِ رجبَ سنةَ ثلاثٍ

---

(١) الساقة : المشاة .

وعشرين ومائتين كما تقدَّمَ ، وكان ملكُ الرومِ قـــد ركـــب فـــي جيشِهِ متقدماً للقاءِ المعتصمِ فتقاربا حتى كان بينهما مسافةُ نحـــوِ أربعةِ فراسخَ .

الأفشينُ وملكُ الروم

أما الأفشينُ فكان قد دخل بلادَ الرومِ وتوَّغلَ فيها ولكن من ناحيةٍ أخرى ، فأصبح ملكُ الرومِ بين المعتصمِ والأفشين فضاق بذلك ذرعاً ، وأصابه خوفٌ شديدٌ أن يكونَ موقفهُ هذا نتيجةَ خطةٍ مدروسةٍ بحكمةٍ من المسلمين ليضعوه بين فكي كماشةٍ فيقطعوا عليه وتكونُ نهايتُهُ ، فبات في همٍ شديدٍ ، وحالةٍ نفسيةٍ سيئةٍ وأخذ يدرسُ الموقفَ ويقلبُ الأمورَ وينظرُ أنْ هو ناجزَ الخليفةَ جاءَهُ الأفشينُ من خلفِهِ فالتقيا عليه فيهلكُ ، وإنْ ناجزَ الأفشينَ وترك الخليفةَ أخذه كذلك من خلفِهِ فأيقنَ أنه على كلا الحالتين هالكٌ لا محالةَ .

فبينما هو موقفِهِ الحرج هذا إذ بطلائعِ الأفشين تبدو له من بعيدٍ ، فسار نحوها في شرذمةٍ من جيشِهِ واستخلفَ على بقيةِ الجيشِ قريباً له .

وفي صبيحةِ يومِ الخميسِ لخمسٍ بقينَ من شعبانَ التقى مع الأفشينِ في قتالٍ شديدٍ ثبت فيه الأفشينُ ومَنْ معه من المسلمين ثباتاً مشرفاً كان النصرُ حليفَهم على الروم الذين قُتِل منهم عددٌ كبيرٌ ، وجُرِحَ كثيرون آخرون وهرب الملكُ ومَنْ بقي معه من الجندِ ، ورجعوا الى أماكنهم فلم يروا أحداً وعلموا أن بقيةَ جيشهِم قد شرَدوا عن قريبِهِ ، وأخلوا مواقعَهم ، وذهبوا عنه وتفرقوا في الشعابِ والجبالِ ، فغضب الملك غضباً شديداً ورفع

سيفهُ فضرب به عنقَ قريبِهِ ، وبات يقلبُ الأمورَ ، ويفكرُ في نتائجها وعواقبِها .

وجاءَتِ الأخبارُ بذلك كلِهِ الى المعتصمِ الذي سُرَّ بالغاً وفرح منها فرحاً شديداً جعله يتفاءَلُ بالنصرِ المؤزَّرِ والفتحِ المبينِ ، فركب من فورِهِ وأمر بالتوجُّهِ الى أنقرةَ ، ووافاه الأفشينُ بمن معه هناك ، فوجدوها خاليةً من أهلها الذين خرجوا منها خائفين على أنفسِهِم .

خبرُ أشناسَ

أمّا أشناسُ فقد سلك الطريقَ التي أمرهُ أميرُ المؤمنين أنْ يسلكهاَ حتى إذ صار بمكانٍ يقالُ له: (مروج أسقف) ورد عليــه كتابٌ من أميرِ المؤمنين المعتصمِ يُعلمُهُ فيه أنَّ ملكَ الرومِ فــي طريقِهِ إليه ، وأنه يريدُ أنْ يأتيهُ بغتةً ، فعليه أن يمكثَ في مكانِهِ حتى تردَ إليه المعلوماتُ بتحركِ ملك الرومِ فأقام أشــناسُ فــي مكانِهِ ثلاثةُ أيامٍ ، فوردَ عليه كتابٌ آخرُ من المعتصمِ يــأمُرُهُ أنْ يوجّهَ قائداً من قوادِهِ في سريةٍ يلتمسون رجلاً من الروم يسألونه عن أخبارِ الملك وتحركاتِهِ ، فوجَّهَ أشناسُ عمراً الغرغانيَّ فــي مائتي فارسٍ .

فأنطلق عمرٌ وتقصّى الأخبارَ ، وفرّق أصحابَهُ في طلبِ ، رجلٍ رومي فرجعوا وقد أتوَ بعددٍ من الرجالِ منهم من جنــودِ الملكِ ، ومنهم من عامّةِ الناسِ فسألهم أشناسُ عن أخبارِ الملكِ ، فأخبروه أنه مقيمٌ منذ أكثرَ من ثلاثين يوماً ينتظرُ جيشَ المسلمين ليشتبكَ معهم فأتاه الخبرُ بأنَّ عسكراً عظيماً قد دخل بلادَهم مــن ناحيةِ الأرمنياقِ ، تعنون بذلك العسكرِ عسكرَ الأفشينِ ، وتلــوا عليه خبرَ اشتباكهِم مع الأفشينِ .

فكتب أشناسُ إلى أميرِ المؤمنين يُخــبرهُ بذلــك فكتــب بدورهِ كتاباً إلى الأفشينِ يحذرهُ أنَّ ملك الرومِ قادمٌ إليه ، وعليــه أن يقيمَ مكانهُ خوفاً عليه من أن يفاجئَهُ بغتــةً وعليــه أن يبقــى

كذلك إلى أن يردَ عليه كتابٌ منه مزودٌ بتعليماتٍ جديدةٍ وضمن أميرُ المؤمنين المعتصمُ لمن يوصلُ كتابهُ إلى الأفشين عشرةَ آلاف درهمٍ لحساسيةِ الموقِ ودقتِهِ .

ومضَتِ الرسلُ بكتابِ أميرِ المؤمنين الى الأفشينِ فلم يجدوه لأنه أوغلَ في بلادِ الرومِ .

وكان أشناسُ قد أسَرَ في طريقِهِ عدداً من الأسرى فضرب أعناقهم حتى بقيَ منهم شيخٌ كبيرٌ فقال له: ما يفيدُكَ قتلي ، وأنتَ وعسكرُكِ في ضيقٍ وههنا قومٌ قد هربوا خوفاً منكم ، وهم بالقربِ مِنّا معهم الطعامُ والماءُ والشعيرُ والعلفُ وغيرُ ذلك ، فأرسِلْ معيَ بعضَ جندِك لأسلِمَهُم إليهم ، وخلِّي سبيلي .

فأرسل معه خمسمائةِ فارسٍ وجعل أميرَهم ملكَ بنَ كيَدرَ ، وقال له : متى أراكَ هذا الشيخُ سبياً كثيراً أو غنيمةً كبيرةً فخَلِ سبيلَهُ .

فسارَبهمُ الشيخُ حتى صار على مشارفِ أنقرةَ في مكان يقال له: (الملاّحةُ) وإذا فيه عددٌ كبيرٌ من جنودِ الرومِ ، ومن أهلِ أنقرةَ ، فلما رأو المسلمين مقبلين إليهم أدخلوا النساءَ والصبيانَ الملاّحةَ ، وتجردوا لقتالهِم قريباً منها فقاتلهمُ المسلمون حتى غلبوهم ، وأخذوا منهم عدداً من الأسرى ومغانم كثيرةً ،

فسألوهم عن أمرِهم فأخبروهم أنهم كانوا مع الملكِ حيــن قــاتل الأفشينَ وهربوا أمامَهُ .

فرجع مالكُ بنُ كيدَرَ بما معه من الغنائمِ والأسرى الـــى معسكرِ أشناسَ وأطلقَ الشيخَ ، وأخبر أشناسَ خبرَ الملـــكِ كمــا سمع من الأسرى فأخبرَ أشناسُ أمير المؤمنين ، فسُرَّ به ســروراً عظيماً .

وبعد ثلاثةِ أيامٍ اجتمع المعتصمُ بالأفشينِ وأشناسَ فـــي مدينةِ أنقرةَ الخاليةِ من الجنودِ والمقاتلين ، فأقاموا فيها ثلاثةَ أيامٍ

حصارُ عمورية

وخلال إقامةِ أميرِ المؤمنين وجيشِهِ بأنقرةَ أستردّوا عافيتهم ، وأخذوا قسطاً وافراً من راحةِ الجسدِ والأعصابِ ، ثم أشار على قادةِ الجيشِ والأمراءِ أن هذه الإقامةَ لن تدومَ ، وأنهم لم يأتوا الى هذه البلادِ للنزهةِ والأستجمامِ ، بل جاء والخدمةِ قضيةٍ عادلةٍ ومقدسةٍ ولتنفيذِ مهمةٍ محددةٍ ، وهي الثأرُ للشرفِ والعرضِ والدينِ والوطنِ ، والواجبُ يقضي عليهمُ القيامَ بها على أتّمِ وجهٍ ، وبكلِ صدقٍ وثقةٍ وإيمانٍ وإخلاصٍ وهذا عهدٌ قطعوه على أنفسهمِ من قبلُ وعاهدوا اللهَ عليه(فمن ينكثُ على نفسهِ ومَنْ أوفى بما عاهدَ عليهُ اللهَ فسيؤتيهِ أجراً عظيماً) [1] .

(ولقد كانوا عاهدوا اللهَ من قبلُ لايولّون الأدبارَ وكان عهدُ اللهِ مسئولا) [2].   صدق الله العظيم

ثم جعل المعتصمُ يعيدُ تشكيلَ الجيشِ مرةً أخرى فقسمه الى ثلاثةِ عساكرَ:

عسكرٌ فيه أشناسَ في الحيرةِ ، والمعتصمُ في القلبِ .

وعسكرُ الأفشينِ في الميمنةِ ، وبين كل عسكرٍ فرسخان ، وعلى كلِ عسكرٍ أن يكونَ له ميمنةٌ وميسرة .

---

(١) الآية /١٠/ من سورة محمد .

(٢) الآية /١٥/ من سورة الأحزاب .

وأمَرَهم أن ينطلقوا بسم اللهِ ، وعلى بركةِ اللهِ وأن يكثروا من قولِ: لا إله إلا اللهُ ، محمدٌ رسولُ اللهِ وأن يتوغّلوا في البلادِ ، ويحرقوا القرى ، ويهدموا البيوتَ ، وبأخذوا الأسرى ، ويُظهروا للعدوِ القوةَ والبطشَ والبأسَ والشدةَ والمنعةَ ، وأنَّ المسلمين لايسكتون على الضيمِ ولا يرضون بالذلِ ، ولا يقبلون الإهانةَ ، ولا يرضخون للقوةِ والغدرِ والتهديدِ ، بل يردّون الكيلَ كيلين ، والصاعَ صاعين ، وإذا ضربوا العدوَّ أوجعوه ، وإذا هجموا عليه آلموه وأرَوه بطشهم وبأسهم ، وأنزلوا به قارعةً تحلُّ بدارهِ فتجعلُها خراباً وتحولُها إلى أثرٍ بعد عينٍ ، هذا لمَنْ أراد بهم الشَّرَّ ، أمّا مَنْ وادَعَهم وسالَمَهم وحفظ معهمُ العهدَ والميثاقَ كانوا على درجةٍ عظيمةٍ من السلمِ والأمانِ والرحمةِ والتسامحِ والإنسانيةِ ، وهذا من صلبِ الإسلامِ وصميمِهِ ، قال اللهُ تعالى :(وقاتلوا في سبيلِ اللهِ الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا إنَّ اللهَ لا يحب المعتدين) [1] .

(وإنْ جنحوا للسَّلْمِ فاجنحْ لها وتوكلْ على اللهِ إنه هو السميعُ العليمُ) [2] .

---

(١) الآية /١٩٠/ من سورة البقرة .

(٢) الآية /٦١/ من سورة الأنفال .

(وإنْ أحدُ من المشركين استجارَكَ فأجرْهُ حتى يسمعَ كـــلامَ اللهِ ثم أبلِغْهُ فأمَنَهُ ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون) [١] .

(عسى اللهُ أنْ يجعَلَ بينكم وبين الذين عاديتم منهم مـــودةً واللهُ قديرٌ واللهُ غفورٌ رحيمٌ .

لاينهاكمُ اللهُ عنِ الذين لم يقـــاتلوكم فـــي الذيـــنِ ولـــم يخرجوكم من ديارهم أنْ تبَرُّهُم وتُقسِطوا إليـــــهم إنَّ اللهَ يحـــبُ المقسطين)[٢] .

وانطلقَتْ جحافلُ المسلمين كالسيلِ الجـــارفِ يكتســـحونَ كلَّ ما صادَفَهم ويأخذ الغنائمَ ، ويقودون الأسرى حتى خشِـــيَهُمُ الناسُ وتحاشوا الاصطدامَ بهم وذلك ما بين أنقرةَ وعموريـــــةَ وبينهما سبعُ مراحلَ كانوا يفعلون ذلك حتـــــى وافـــوا عموريـــةَ وكان أولَ مَنْ وافاها أشناسُ ، ثم المعتصمُ ثم الأفشـــينُ ، لـــهم أصواتٌ رهيبةٌ ، ورجةٌ عنيفةٌ ، فلما أصبحوا على مرمى البصرِ منها ضربوا خيامَهم ، وأوقدوا نيرانهم ، وكانَتْ نيراناً عظيمةً لم ترها عموريةُ في تاريخها الطويل .

---

(١) الآية /٦/ من سورة التوبة .

(٢) الآية / ٧–٨ / من سورة الممتنة .

ثم أخذ فرسان المسلمين يدورون حولها وقـــد أمرهــم المعتصم أن يضربوا حولها حصارا محكما،وأن يشدوا الحراســة ولا يد عوا الطير يدخل اليها ، أو يخرج منها ، وشاهد المعتصم على سورها الطويل أبراجا كثيرة ، فجعل لكل قائد مـــن قــواده أبراجا منها على قدر أصحابه .

وكان رجل من المسلمين قد وقع أسيرا في أيدي الـــروم فتنصر ، فلما رأى المسلمين خرج إليهم وطلب مقابلة المعتصــم ، فأذن له ، فلما اجتمع به أخبره أن موضعا من سور المدينة قد تصدع بسبب سيل أصابه وأنه يمكن اختراقه بيســـر وســـهولة فأمر المعتصم أن تضرب خيمته علـــى ذلـك الموضـــع ، وأن تنصب المجانيق أمامه ، ففعلوا ، فتهدم السور من ذلك الموضــع الأمر الذي سهل على المسلمين اختراق المدينة منته بأقل خسارة ممكنة .

بـــدء القـــتال

أمر المعتصم بإعداد دبابات لهدم السور وسلالم للصعود عليه واقتحامه ، ومنجنيقات لرمي الحجارة وقذف كتل النـــيران فلما انهدم السور بدأ القتال على الثلمة ، فكـــان أول مـــن بـــدأ بالحرب أشناس وجنوده وكان المكان ضيقا ، وقد وضع الـــروم كل ثقلهم على تلك الثلمة لحمايتها منع المسلمين مـــن اقتحامـــها وأظهر جنود أشناس شجاعة فائقة ، ولكن ضيـــق المكـــان لـــم يساعِدْهم في اختراقِ تلك الثلمةِ فأَمَدَّهُمُ المعتصـــمُ بالمنجنيقـــات التي حول السورِ ، وجعلوا يرمون بها ذلـــك الموضـــعَ وثبـــت المسلمون ثباتاً مشرفاً ، وقاتلوا قتالاً شديداً حتـــى أقبـــل الليـــلُ وفصل بينهم بظلامِهِ .

وفي اليوم الثاني كان القتال على الأفشـــينِ وجنـــودِهِ فأظـــهروا شجاعةً فائقةً ، وأجادو القتالَ ، وتقدموا نحوَ عدوِّهـــم ، وأمـــير المؤمنين المعتصمُ على دابتِهِ بإذاءِ الثلمةِ ، وأشناسُ والأفشـــينُ وخواصُّ القـــادةِ والأمراءِ معه ، فقال المعتصمُ: ما أحسَنَ مـــا كان الحربُ اليومَ..!!

وقال عمرٌ الفرغانيُّ: الحربُ اليومَ أجودُ منها أمـــسِ فأمســـك أشناسُ عنِ القتالِ حين سمع تلك العبارةَ وأضمرَ له فـــي نفسِـــهِ شيئاً .

وحين خيَّمَ عليهمُ الليلُ بظلامِهِ وفصـــل بينـــهم وبيـــن عدوهم وأمسك القومُ عن القتالِ ، وانصرف أشناسُ الى مضربــهِ ، ترجَّلَ له القوادُ وأقبلوا نحوه كعادتِهم وفيهمُ الفرغانيُّ ، وأحمـدُ بنُ الخليلِ بنِ هشامٍ فقال لهم أشناسُ مُغْضَباً: ياأولاد الزنـــا ...!! أين تمشون بين يديَّ ، كان ينبغي أمْ تقاتلوا أمس حيـــثُ تقفـــون بين يدي أميرِ المؤمنين ، فتقولون الحربُ اليومَ أجودُ منها أمـــسِ كان يقاتلُ أمسِ غيرُكم ...!!

ومضى في توبيخهِم وعتابهِم حتى أزعَجَهم فأسروا لـــه في نفوسِهِم ، وأضمروا له الشَّر والمكيدةَ ، فلما خلَوا بأنفســـهِم قال أحدُهُما للأخرِ: ألا ترى الى هذا العبدِ ابنِ الفاعلةِ ، ما صَنَعَ اليومَ ـــ يعني بذلك أشناسَ ـــ أليس الدخولُ إلى الرومِ أهون مـن هذا ...؟

فقال عمرُ الفرغانيُّ لأحمد: سيكفيكَ اللهُ أمرَهُ عن قريبٍ.

وكان الفرغانيُّ يعلمُ أنَّ مؤامـــرةً تحـــاكُ ضـدَّ أمـــيرِ المؤمنين المعتصمِ وأنَّ بعضَ القادةِ يوغرون صدرَ العباسِ بـــنِ المأمون بالتراجعِ عن بيعةِ عمهِ المعتصمِ وتلافي ما كـــان مـــن تنازلِهِ له عنِ الخلافةِ.

لذلك قال له الفرغانيُّ: سيكفيكَ اللهُ أمـــرَهُ عـــن قريـــب وأشار عليه أن يكونَ مع العباسِ في مؤامرتِهِ على المعتصـــمِ ـ كما سيأتي إنْ شاء اللهُ تعالى .

دخــولُ عموريــةَ

في صبيةِ السادسِ من شهرِ رمضانَ المبـــاركِ كــانتِ المعركةُ الفاصلةُ ، وفي اليوم الثالثِ من أيامِ الحربِ كـــان دورُ القتالِ على أميرِ المؤمنين المعتصمِ وفرقتِــهِ وفيــها المغاربــةُ والأتراكُ وإيتاخُ أحدُ قوادِ المعتصمِ الأشداءِ .

فاشتبكوا مع الرومِ بقتالٍ قاسٍ وعنيفٍ ، واستطاع بعضُ جنودِ المسلمين أن يوسّعوا هدمَ الســورِ الأمــرُ الــذي جعلــهم يتحركون بحريةٍ ، ويوسّعون دائرة القتالِ الذي اشتدَّتْ ضراوتُــهُ ، وحميَ وطيسُهُ ، وتتصامجَ الفرسانُ هنا وهنـــاك ، والســيوفُ تتوهجُ ، والمنايا تتواثبُ والقتلى يســقطون ، وفرســانُ الــرومِ يتجندلون ، تحت طغيانِ رماحِ المسلمين ، ويتهاوون أمامَ سيوفِهِمُ الظامئةِ .

في هذه الظرفِ الحاميةِ ، والمعركةُ على أشدِّها عنيفــةٌ قاسيةٌ ضاريةَ ، وقف المعتصمُ يشجعُ جنودَهُ ويلهبُ حماســـتهم ويثيرُ روحَ الشجاعةِ والأستبسالِ في نفوسِهِم ، وكـــان صوتُــهُ المُغْغَمُ بقوةِ العزيمةِ ، والأملِ في النصرِ يجعلُ من كل جنـــدي من جنودِهِ جيشاً بكاملِهِ فكان جنــودُ الــرومِ يتــهاوَون أمامــهُ كالذبابِ المترنحِ وتتهادى معهم عصبيتُهُمُ الصليبيةُ التي دفعتــهم إلى هذا المصيرِ المؤلم ، وأوصلَتْهم إلى هذه النهايةِ المفجعةِ .
/ وما ظلمُهمُ اللهُ ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون / .

كان بطارقة الروم قد اقتسموا أبراج الســـور المحيـ
بالمدينة ، وكان البطريق[1] الموكـل بالناحيـة التـي اخترقـ
المسلمون يقال له (وندوا) ومعناه (ثور) فقاتل في ذلك اليوم قتا
شديدا دفاعا عن تلك الثغرة ، وكذلك كان يفعل في الأيام السـابقة
، فلم يمده غيره من البطارقة بجندي واحد إذ كل بطريق كـا
خائفا أن يقتحم المسلمون ناحيته ، فلما كان الليل ذهب ونوا إلـ
قومه فقال لهم ههنا قاعدون تنظرون إلينا كالشامتين ولايجرؤو
أحدٌ منكم أنْ يهبَّ لنجدتِنا ...!! فإن لـم تقـاتلوا معنـا غلَبَنـ
المسلمون ، وسقطتِ المدينةُ في أيديهم ، وكأننا قدمناها لهم لقمـ
سائغةً ، ودخلوها على رقابنا وهاماتنا ...!!

فلم يمدَّهُ أحدٌ بجندي واحدٍ ، وقالوا له: لانمدُّك ولاتمدُّنا

فعزم هو وأصحابهُ على الخروجِ إلى المعتصمِ يسـألو
الأمانَ على الذريةِ ، ويسلمونه الحصنَ بما فيه.

وفي الصباحِ ذهب إلى المعتصمُ يفاوضهُ بأمرِ السـلام
وجعل أصحابَهُ أمام الثغرةِ التي كان القتالُ يدورُ حولَها ،
وأمَرَهم أنْ لا يقاتلوا حتى يتركوا فرصةً للمفاوضةِ ، وتوجَّه إلـ
المعتصمِ ليجتمعَ به ، فلما وصل إليه كانت جنودُهُ قد وقفوا أمام

---

(١) البطريق: العظيم من الروم، وقيل: هو الوفيُّ المعجب والبطريـ
بلغة الروم: هو القائد وجمعُهُ بطارقة .

الثغرةِ وقد أمسكوا عنِ القتالِ ، وكان عبدُ الوهابِ بنُ علي بين يدي المعتصمِ يوميٌّ الى المسلمين بالدخولِ ، فنظر ونَدوا فشاهدهم يدخلون المدينةَ ، فضرب يدَه على لحيتِهِ ، فقال له المعتصمُ: مالك...؟

قال: جئتُ أفاوضكَ ، فغدرتَ بي .

فقال المعتصمُ: كلُ شيىءٍ تريدهُ فهو لك ، ولست أخالفُكَ

قال: أين تخالُفني ، وقد دخل الناسُ المدينةَ...!!

وجعل جنودُ الرومي يشيرون إليهم لايتمكنون من دفعهم ولم يكترثِ المسلمين بهم ، ثم اندفعوا كالسيلِ الجارفِ وتكاثروا عليهم حتى دخلوا المدينةَ قهراً ، يعلوهمُ التهليلُ والتكبيرُ وتفرقتِ الرومُ عن أماكنِهم ، فأنقضَّ عليهمُ المسلمين يقتلوهم حيثُ وجودهم ، فهربوا أمامهم ولاذوا بكنيسةٍ لهم كبيرةٍ وهائلةٍ فتبعوهم وفتحوها قسراً ، وقتلوا مَنْ فيها ، وأحرقوا عليهم بابَ الكنيسةِ الذي التَهَمَتْهُ النيرانُ فأحرقتِ الكنيسةَ ، ومَنْ فيها ، ولم يبقَ في المدينةِ موضعٌ محصنٌ سوى المكانِ الذي فيه نائبُ الحاكمِ الذي يقال له: (ناطس) أو(مناطس) ، وكان في حصنٍ منيعٍ ، فركب المعتصمُ فرسَهُ وانطلق حتى أصبحَ بإزاءِ الحصنِ فناداه المنادي: ويحك يامناطس هذا أميرُ المؤمنين واقفٌ تِجاهَكَ.

فقالوا: ليس بمناطسٍ هنا .

ثم نوديَ مرةٍ أخرى ، فقالوا: ليس بمناطس ههنا.

ثم خرج مناطسٌ وهو ينادي: هذا مناطسٌ... هذا مناطسٌ فرجع أميرُ المؤمنين ، وأمر بالسلامِ فنُصبت على الحصنِ فتعلق بها بعضُ الفرسانِ حتى ارتقوا الى الحصنِ ، فقالوا له: ويحك يامناطسُ ، انزلْ على حكمِ أميرِ المؤمنين فامتنَعَ ، ثم خرج من الحصنِ متقلداً سيفاً ، فوثب عليه أحدُ فرسانِ المعتصمِ فوضع السيفَ في عنقِهِ ثم جيءَ به ذليلاً مهاناً حتى أُوقفَ بين يدي أميرِ المؤمنين ، فضربه بالسوطِ على رأسِهِ ، ثم أر به أن يساقَ إلى خيمةِ المعتصمِ فأُوثِقَ فيها ، ثم أُخذَ أسيراً إلى بغدادَ .

هذا ... وقد جاء في بعضِ المراجعِ أنَّ المسلمين قتلوا في عمورية أكثرَ من ثلاثين ألفاً ، وأخذوا مغانمَ كثيرةً لا تُعَدُّ ولا توصفُ ، فحملوا منها ما استطاعوا حملةُ وأحرقوا مابقي منها وأمر المعتصمُ بإحراقِ المجانيقِ والدباباتِ وألاتِ الحربِ لئلا يتقوى بها الرومُ على شيئٍ من حربِ المسلمين ، ثم غادر عموريةَ في أواخرِ شهرِ شوالَ سنةَ ثلاثٍ وعشرين ومائتين بعد أن أقاموا فيها خمسةً وعشرين يوماً ، وقيل: خمسةً وخمسين يوماً ... واللهُ أعلم .

شعر أبي تمامٍ في يومِ عموريـــة

قدم الخطباءُ والشعراءُ على أمـــير المؤمنيـــن يهنئونـــه بالنصرِ العظيمِ ، والفتحِ المبينِ وألقوا بين يديه الخطبَ البليغـــةَ والكلماتِ الرائعةَ ، والقصائدَ الفخمةَ ، فتكلموا وأجادوا ومدحــوا فبالغوا ، وارتجلوا الشعرَ فأحسنوا ، وكانَّ المجلسَ قد تحولَ إلــى منتدىً أدبيٍ ، وميدانٍ الى التنافسِ في المدحِ والثنـــاءِ وتبــادلِ الكلماتِ الفصيحةِ والخطبِ الرنانةِ ووصـــفِ أمــير المؤمنيــن المعتصمَ بالبطولةِ والشهامةِ ، والشرفِ والنبلِ والكرمِ والشــجاعةِ وفي تلك المناسبةِ قال أبو تمامٍ ، حبيبُ بنَ أوسٍ الطـــائي وهــو يمدح أميرَ المؤمنين المعتصمَ الذي ثأرَ للمســلمين مــن الــرومِ وأغاثَ النساءَ اللواتي نادينهُ واستغثْنَ به ، وأعاد لهن الشـــرفَ والكرامةَ والثقةَ بالنفسِ وأثلجَ صدورَ المسلمين جميعاً ، وأعـــاد لهمُ الأملَ والأمانَ ، والسلامةَ والاطمئنانَ .

وكَذّب المنجمين الذين قالوا: إن المعتصمَ لن يقدرَ علـــى فتــحِ عموريةَ وأقنعوا ملوكَ الرومِ بذلك ، وحين أتتهُمُ الأخبــارُ بأنـــه زاحفٌ إليها ليفتحَهَا راسلوه يقولون: إنا نجدُ أنّ مدينتنا لاتُفتَحُ إلا في وقتِ إدراكِ العنبِ والتينِ وبيننا وبين ذلك الوقـــتِ شـــهورٌ يمنعُكَ من المقامِ بها الثلجُ والبردُ .

فأبى أن ينصرفَ وأكُدَّ عليها حتى فتحها وأبطَلَ ما قالوا ولذلك قال أبو تمامٍ يكّذِبهم ، ويُبطلُ أقوالهم:

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ ... في حّدِه الحدُّ بين الّجدِ واللِعبِ
بيضُ الصفائحِ لاسودُ الصحائف في ... متونِهنَّ جلادُ الشكِ والّرِيَبِ
والعلمُ في شُهُبِ الأرماحِ لامعةً ... بين الخميسين لافي السبعةِ الشهبِ[1]
أينَ الروايةُ بل أين النجومُ وما ... صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذبِ[2]
تخرصاً وأحاديثاً ملفقةً ... ليستْ بنبعٍ إذا عُدَّتْ ولاغَرَبِ[3]

---

(١) الخميسان : الجيشان ، وإنما سُمّيَ خميساً ، لأن الملوك في بعضِ الأزمنةِ كانوا إذا قاموا بغزوةٍ وانتصروا وأخذوا خُمْسَ الغنيمة والسبعة الشهب: الطوالع التي أرفعها زحَلُ وأدناها القمر .
(٢) الزخرف في الاصل: ما يعجبك من متاع الدنيا ، ويقال للقول المحسَّنِ المكذوب زخرف لأنه حُسّنِ ليغرّ .
(٣) التخرص: التكذب وافتراء القول، والنبع: شجر صلب ينبت في رؤس الجبال تتخذ منه القسيُّ ، وإذا وصف الرجل بالجادة والصبر شُبّهَ بالنبع ، أي أنه صلب لا يقدر على كسره والغرب: شجر ينبت على الأنهار ليست له قوة. يريد أن هذه الأحاديث ليست بقوية ولا ضعيفة، أي هي غير شيء

عجائباً زعموا الأيامَ مُجفِلَةٍ عنهُنَّ في صِفَرِ الأصغارِ أو رجبِ[1]
وخوّفوا الناسَ من دهياءَ مُظلمةٍ إذا بدا الكوكبُ الغربيُّ ذو الذنبِ[2]

وفي ذلك يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ولازاجراتُ الطيرِ ماللهُ صانعُ
فسلهُنَّ هل يدرين علماً متى الفتى يلاقي المنايا أو متى السيل واقعُ

---

(١) مجفلة : ويروى مجلية: يقال أجفلت الحمر والنعام إذا أحس إذل أحسَّتْ بأمرٍ يخيفها فهربتْ منه بعجلةٍ ورعبٍ .ويقالُ: أجلى القوم عنِ القتيلِ إذا انكشفوا عنه.
وصغر الأصغار: وهو شهرُ صفر، عظَّمَ أمَرهُ لأنه ينتَظرُ منه أمرٌ شاقٌ ، كما يقالُ: فلانٌ فارسُ الفرسان، أي أشدهم بأساً أي أنهم أخبروا أن أموراً تظهرُ في شهر صفر أو رجبَ ، وأن الأيامَ سَرِع في إظهارها .
(٢) دهياءُ : أي داهيةٌ ، يقالُ: داهيةٌ يتبع دهياءٌ ودهواءُ، وكانوا قد حكموا أن طلوع ذلك الكواكب الموصوف بذي الذنبِ يكونُ فتنةً عظيمةً وشدائد كثيرة ، وتغيُّرَ أمرٍ في البلاد، فأنكر الطائي ذلك من أحكامهم انتهى... من شرح ديوان أبي تمام للتبريزي بتصرفٍ .

وصَيّروا الأبراجَ العُليا مرتّبة	ما كان منقلباً أو غيرَ منقلبِ[1]
يقضون بالأمرِ وهي غاملةٌ	مادرا في فلكٍ وفي قطبِ[2]
لو بيّنتْ قطُّ أمراً قبلَ موقِعِهِ	لم تُخفِ ما حلّ بالأوثانِ والُصلبِ[3]
فتحُ الفتوحِ تعالى أن يحيطَ به	نظمٌ من الشعرِ أو نثرٌ من الخطبِ
فتحٌ تفتَّحُ أبوابُ السماءِ له	وتبرزُ الأرضُ في أثوابها القُشُبِ[4]
يا يومَ وقعةِ عموريةَ انصَرَمَتْ	منكَ المنى حُفَّلاً معسولةَ الحَلَبِ[5]

---

(١)الأبراج: هي بروج السماء التي أَلُها الحَمَـلُ وآخرهـا الحـوت، وقوله: (منقلباً أو غير منقلبٍ) أي أن المنجمين في البروج منقلبـاً وثابتاً ، ويربطون أخبارهم بهذه البروج إذا ورد عليهم خبر في وقتٍ الطالعُ فيه برجٌ ثابتٌ حققوه ، وإن كان الطالعُ برجاً منقلباً لم يحققوه.

(٢)أي أنهم يحكمون عليها بأحكامٍ مختلفةٍ ، وهي لاتعرفُ شيئاً مـن ذلك ، وما يحكمون به لم يَدُرْ في فَلَكٍ منها ولاقطب .

(٣)يقولُ: لو بان بهذه البروج أمرٌ قبل حدوثهِ لبانَ أمرُ هـذا الفتـحِ الذي لم يكنْ فتحٌ أجلَّ منه .

(٤)أي أن الفتحَ تفتحُ له أبوابُ السماءِ بالغيثِ والرحمـةِ ، أو انـزالِ النصر من الله تعالى لعبادهِ المؤمنين، والقُشُبُ: جمع قشيبٍ ، وهـو الجديد .(٥) حُفَّلٌ: جمع حافلٍ وهي التي حَفَلَ ضرعُها بالبنِ ، وهـو ههنا مستعارٌ للمنى ، والمعسولةُ : التي فيها العسلُ ، والحَلَـبُ: مـا حُلِبَ من اللبنِ وهو مستعارٌ .

أبقيتَ جدَّبني الإسلامِ في صَعَدٍ والمشركين ودارَ الشركِ في صَبَبِ[1]

الى أن قال:

لقد تركتَ أميرَ المؤمنين بها للنارِ يوماً ذليلَ الصخرِ والخَشَبِ[2]

غادرتَ فيها بَهيمَ الليلِ وهو ضحىً يَشلُّهُ وَسْطَها صبحٌ من اللهبِ[3]

حتى كأنَّ جلابيبَ الدُّجى رغِبَتْ عن لونِها وكأنَّ الشمسَ لم تغِبِ[4]

ضوءٌ من النارِ والظلماءُ عاكفةٌ وظلمة من دخانٍ في ضحىً شحِبِ[5]

---

(١)الجدُّ: الخطُّ ، وبنو الإسلام: أبناؤهُ الذين يدخلون فيه ويُنسبون إليه والصَّعَدُ: المكان الذي يُصعَدُ فيه ، والصَّبَبُ : المكان الذي يُنصَبُّ فيه أن يُنحدرَ ويقالُ لهما : الصَّعودُ والصَّوبُ

(٢) أي تركت يوماً ذليلاً صخرُهُ وخشبُهُ ، والغرضُ أنها أحرقَتْ فذلَّ صخرُها وخشبُها للنارِ .

(٣) غادرتَ: تركتَ ، والبهيمُ: الليلُ الذي لاضوءَ فيه ، ويشُلُّهُ: أي يطرُدُهُ ، أي كان ضوءُ النارِ يطردُ الليل ، وهو كالإصباحِ لتوقُّدِهِ وتلهُّبِهِ .

(٤)جلابيبُ الدُّجى: الجلابيبُ جمعٌ جلبابٍ، وهو القميصُ أو الرداءُ واستعاره ههنا للدُّجى وهو جمعُ وجيهٍ ، والدُّجيةُ: الظلمةُ .

(٥)شحِب: كلمةٌ قليلةٌ ، وإنما الكلامُ شاحبٌ ، أي متغيّرٌ ، المعنى : أنَّ ضوءَ النارِ يصيّرُ الليلَ نهاراً ، وظلمةَ الدخانِ تصيّرُ الضُحى شحباً، أي متغيراً .

ويتابعُ أبو تمام قائلاً:

تدبيرُ معتصمٍ باللهِ منتقمٍ ... للهِ مرتقِبٍ في اللهِ مرتَقِبِ

لم يغزُ يوماً ولم ينهدْ الى بلدٍ ... إلا تقدمَهُ جيشٌ من الرُّعُبِ

لو لم يقُدْ جحفلاً يومَ الوغى لَغَدا ... من نفسهِ وحدَها في جحفلٍ لجبِ

رمى بكَ اللهُ بُرجَها فهدَّمَها ... ولو رمى بكَ غيرُ اللهِ لم يُصِبِ

لبيتَ صوتاً زِبَطْرِياً هرقتَ له ... كأسَ الكرى ورُضابَ الخُرَّدِ العُرُبِ[1]

أجبتَهُ معلناً بالسيفِ منصلتاً ... ولو أجبتَ بغيرِ السيفِ لم تُجِبِ

حتى تركتَ عمودَ الشركِ منعفراً ... ولم تُعَرِجْ على الأوتادِ والطُنُبِ

إلى أنْ قال:

والحربُ قائمةٌ في مأزقٍ لَجِجٍ ... يجثو القيامُ به صغراً على الركَبِ

كم نيلَ تحت سناها من سنا قمرٍ ... وتحتَ عارضِها من عارضٍ شنِبِ

كم كان في قطعِ أسبابِ الرقابِ لها ... الى المنحدرةِ العذراءِ من سببِ

كم أحرزَتْ قُضُبُ الهندي مصلتةً ... تهتزُّ من قضبٍ تهتزُّ في كُثُبِ

بيضٌ إذا انتُضيَتْ من حجبِها رَجَعَتْ ... أحقُّ بالبيضِ أتراباً من الحُجُبِ

---

(١)زِبَطري: منسوبٌ الى زِبَطرةَ ، وهي المدينةُ التي غزاها الرومُ فبلغ المعتصمَ أن امرأةً قالت وهي مسبيةٌ: (وامعتصماه) فنقلُ إليه قولُها وكان في يدهِ قدحٌ يريدُ أن يشربَ ما فيه فوضعه وأمر أن يُحفَظَ القدحُ ، فغزا عموريةَ فلما رجع من فتحها شربَ . والله أعلم والخرد: جمع خريد وخريدة وهي الحبيسة ، والعَرُبُ: جمع عَروب وهي المحببة إلى زوجها .

ثم ختم قصيدته بالدعاء للمعتصم وما أبلى في يوم وقعة عمورية من بلاء حسن ، وما أظهر من بطولة ، وما قدم للدين والأمـــة من خدمة جليلة وتضحية عظيمة

خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والأسلام والحسب[1]

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب

إن كان بين صروف الدهر من رجم موصولة أو ذمام غير منقضب[2]

فبين أيامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب[3]

أبقت بني الأصفر المعرض كاسهم صفر الوجوه وجلت أوجه العرب[4]

---

(١) ويروى : كافا الله سعيك ، وجرثومة الشيئ أصله .

(٢)صروف الدهر : أحداثه لانكباته لأن انتصار المسلمين في بـــدر وعمورية من الأحداث العظيمة .

(٣) بدر: اسم لمعركة بدر التي انتصر النبي صلى الله عليـــه وســلم فيها على المشركين . انتصارا ساحقا وهي أول صـــام مسـلح بيــن المسلمين والمشركين .

(٤) بنو الأصغر: هم الروم ، والممرض : الكثير المرض ، وقولـــه: كاسمهم ، يريد اسم أبيهم على الحجاز ، لأنهم إذا ذكروا قيل: بنـــو الأصغر فعرفوا بذلك فصار كالاسم لهم . والله أعلم... بتصرف مـــن شرح ديوان أبي تمام للتبريزي .

التآمر على المعتصم

ذلك أن عجيف بن عنبسة كان قد نقم علـــى المعتصـــم حين وجهه إلى بلاد الروم إذ لم يطلق يده في النفقات كما أطلقت يد الأفشين ، فجعل يؤلب العباس بن المأمون ويوغـــز صـــدره على عمه المعتصم ، ويعاتبه على تنازله له عن الخلافة وتـــأمر مع بعض القادة على مبايعة العباس وخلع المعتصم أو قتله ، ولم يزل عجيف بالعباس يوغر صدره ويحثه علـــى خلـــع الطاعـــة وتلافي ما كان حصل منه من التنازل عن الخلافة حتـــى قبـــل العباس ذلك ، ودس رجلا يقال له (الحارث السمرقندي) وكـــان العباس يثق به فجعله معاونه الأول ورسوله إلى بعـــض قـــواد الجند ، فجعل يتصل بهم حتى استمال عددا من القواد ، وعـــددا من خواص المعتصم فاتفقوا معه وبايعوه على تنفيذ مؤامراتـــهم وقال لهم الحارث: إذا أظهرنا أمرنا فايثب كل منكم على قـــائده ووكل من بايعه من خواص المعتصم بقتله ، ومن بايعـــه مـــن خاصية الأفشين بقتله ، ومن بايعه من خاصية أشـــناس بقتلـــه وتضامنوا على ذلك وتعاهدوا عليه ، ثم انقضوا وهم مجمعـــون على ذلك .

فلما كانوا في طريقهم إلى عمورية لقتال الـــروم أشـــار عجيف على العباس أن ينفذ ما اتفقوا عليه فيثب على عمه فيقتله ، ويرجع بالناس إلى بغداد فإنهم يفرحون بعودتهم إليها وعـــدم

متابعةِ سيرِهِم للقتالِ مع الرومِ ، فأبى العباسُ ذلك ، وقـــال: لا أفسد هذه الغزاةَ .

فلما فرغوا من واقعةِ عموريةَ عاد عُجَيفٌ إلى الإلحـــاحِ على العباسِ بقتلِ عمهِ ، فقال له: ياناِئمُ...! قد فُتِحَـتْ عموريـــةُ وما يمنعُكَ أن ترسلَ رجالاً ينهبون بعضَ الغنائم ، فإذا بلَّغَهُ ذلـك ركب في سرعةٍ ، فتآمرَ بقتلِهِ هناك .

فأبى عليه ، وقال: ننتظرُ ذلك في الطريقِ ويخلوا كمــا كان أولَ مرةٍ ، وهو أمكنُ منه ههنا .

وكان عُجَيفٌ قد أمر مَنْ يقومُ بسرقةِ المتاعِ ففعلوا فجـاء المعتصمُ مسرعاً وسكن الناسُ ، ووقف العباسُ لم يفعـــلْ شـــيئاً ولم يُشِرْ إلى أحدٍ من الذين واعَدَاهم ، وهم كرهوا قتلَ المعتصـمِ بغيرِ أمرِ العباسِ .

هذا وكان قد تسرَّب نبأُ المؤامرةِ إلى المعتصمِ فأسَّرهُ في نفسِـــهِ وأخذ بالحيطةِ والحــــذرِ ، وأمَــرَ بـــالتيقظِ وتشـــديدِ الحراســـة واستدعى الحارثَ السمرقنديَّ فستقَّرهُ فعترف له بحقيقةِ الأمـــــرِ وأخذِ البيعةِ للعباسِ بنِ المأمونِ من عددٍ من الأمـــــراءِ والقــادةِ وذكر له أسماءَهم فاستكثرهُمُ المعتصمُ ، واستغرب منهمُ الغـــدرَ والخيانةَ والتآمُرَ وهم يمرون بظروفٍ صعبةٍ وقاسيةٍ ويواجـهون عدداً لئيماً شرساً ربما تفَّوقَ عليهم إنْ هم أقدموا علــــى فعلِـهِم وغدروا بأميرِهِم ...! !

نهايةُ العباسِ بنِ المأمونِ
وأطرافِ المؤامرةِ

أحاط المعتصمُ بتفاصيلِ المؤامرةِ ، وعلم جميعَ أطرافِها فاستدعى العباسَ بنَ المأمونِ ، فأخذهُ وقيَّدَهُ ودفع به إلى الأفشينِ ليحبسَهُ عنده .

وأخذ يتتبعُ بقيةَ أطرافِ المؤامرةِ حتى قبض عليهم جميعاً ، وأمر بحملهمِ على بغالٍ بلا وطاءٍ ولاسُرُجٍ ، وأخذ الشاهَ بنَ سهيلٍ وكان من أهلِ خرا سان ، فجعل يوبخُهُ ويقولُ له: يا ابنَ الزانيةِ أحسنتُ إليك فلم تشكرْ...؟

فقال ابنُ سُهَيلٍ: ابنُ الزانيةِ هذا ، وأشار الى العباسِ وكان حاضراً ، لو تركني ما كنتَ الساعةَ تقدرُ أن تجلسَ هذا المجلسَ ، وتقولَ هذا الكلامَ...!!

فغضب المعتصمُ وأمر بضربِ عنقِهِ ، وكان أولَ مَنْ قُتِلَ منهم .

فلم نزل الجيشُ منبجَ طلب العباسُ الطعامَ فقُدِمَ إليه طعامٌ كثيرٌ ، فأكل ومُنِعَ الماءَ ، فمات ،وصلى عليه بعضُ إخويهِ .

وأما عمرُ الفرغانيُّ فقد أمر المعتصمُ أنْ يحفروا له بئراً حين وصلوا الى نصيبينَ ، فألقاه فيها وطمَّها عليه .

وأما عُجَيفُ بنُ عنبسةَ فقد مات قريبـــاً مـــن الموصـــلِ وقيل: قُدّمَ له طعامٌ كثيرٌ ومُنِعَ الماءَ حتى مات .

وأخذ يتبعُهمُ الواحدَ بعد الآخرِ حتى استأصلَهم جميعاً .

ظهورُ أمر مازيّار

كان مازيّارُ بنُ قارن قد ظهر أمرُهُ بطبرستانَ وخرج على أميرِ المؤمنين المعتصمِ وعصى أمرُ وقاتلَ جنودَهُ .

فلما ظفرَ الأفشينُ ببابَكَ الخُرَّميِّ ، ولمع نجمُهُ عند المعتصمِ ، وانتشر خبرُهُ في الأمصارِ طمع في ولايةِ خراسانَ فأراد أن يستعينَ بمازيّارَ ليكونَ عوناً له وسيفاً يضربُ به مَنْ خالفهُ .

فكتب إليه الأفشينُ يستميلُهُ ، ويظهرَ له المودةَ ومُعلمُهُ أنّ المعتصمَ قد وَعَدَهُ ولايةَ خراسان .

فكان ذلك عاملاً لحملِ مازيّارَ على خلافِ المعتصمِ وتركِ طاعتِهِ ، وامتناعِهِ بجبالِ طبرستانَ واستقلالِهِ بها ، فكتب المعتصمُ الى عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ يأمرهُ بمحاربتِهِ والقضاءِ عليه ومن جانبٍ آخر كتب الأفشينُ الى مازيّار يأمرهُ بمحاربةِ عبد اللهِ بن طاهرِ وطكأنَهُ أن يكون له عند المعتصمِ كما يحبُّ .

فأطمأنَّ مازيّارُ الى وعودِ الأفشينِ البراقة وأعرَتْهُ كلماتُهُ المعسولةُ فأعلنَ مخالفةَ أمرِ المعتصمِ ودعا الناسِ الى بيعتِهِ ، فمنهم مَنْ بايَعَهُ طواعيةً ومنهم مَنْ بايَعَهُ كرهاً ، وأخذ رهائنَ من المسلمين فسجنهم وأمر أتباعَهُ بقطعِ الطريق وسرقةِ الأموالِ ، ونهبِ القرى ، ونشرِ الخوفِ والذعرِ بين الناسِ وكان

مازيّارُ أيضاً يكاتبُ بابَكَ الخرميَّ وكأنه كان على مذهبِهِ البـاطلِ وعقيدتِهِ الفاسدةِ .

ولقدِ اهتمَّ مازيّارُ بجمعِ الأمـوالِ ، وتعجيـلِ الخـراجِ فجمع في شهرين ما كان يُجمَعُ من سنةٍ ليغريَ جندَهُ ويضمـنَ ولاءهم ، فلما اطمأنَّ الى ذلك أمَرَ قائداً يقالُ لـه (سرخاسـتان) الذي انطلق يعيثُ في الأرضِ الفسادَ ، ويقطعُ الحرثَ والنسـلَ ويهدِمُ المنازلَ ، ويدكُّ الحصونَ ، ويخربُ الأسوارَ حتى خشـيَه الناسُ وفَرّوا منه ، فلمّا استفحل أمْرُهُ وبلغ المعتصمَ وجَّهَ إليـه محمدَ بنَ إبراهيم بن مصعبٍ ومعه الحسنُ بنُ قـارنٍ الطـبريُّ ووجَّهَ المنصورَ بنَ الحسنِ الى الرّي ليدخلَ منها الى طبرسـتان ، ووجَّه أيضاً أبا الساجِ الى اللارزِ ودُنباوندَ ، وهكـذا أحدقَـتِ الخيلُ برخاستِانَ من كل جانبٍ فاقتحموا عليه السـورَ ونصبـوا عَلَمَ الحسنِ بنِ الحُسَينِ على معسكرِ سرخاستان وتدفعتْ خيـولُ المسلمين بسرعةٍ فائقةٍ دون أن يقفَ في طريقـهم أحـدٌ حتـى استولوا على معسكر سرخاسـتان ، وأسـروا أخـاه شـهريارَ وهرب سرخاستان حافيا حتى أجهده العطـش وأعيـاه التعـب وامتنع من كان معه من أصحابه أن يعطوه قطرة مـاء واحـدة فقال لغلام له اسمه جعفر: ياجعفر اسقني ماء فقد هلكت عطشا .

فقال: ليس عندي ما أسقيك فيه .

ثم اجتمع جعفرُ هذا ببعضِ الجندِ فقال لهم: هذا الشيطانُ قد أهلكنا ، فلم لا نتقربُ به الى السلطانِ ونـأخذُ لأنفسنا منه الأمانَ...؟

فقال لهم: خذوا مني مائةَ ألفِ درهمٍ واتركوني فإنَّ ملكَ العربِ لايعطيكم شيئاً ، فلم يحفلوا به وأخذوه الى بعضِ جيشِ الخليفةِ ، فلقيتهم خيلُ الحسنِ بنِ الحسينِ ، فضربوهم وأخذوه منهم وأتو به الحسن، فأمر به فقُتِلَ وأرسلَ رأسهُ الى عبدِ اللهِ ابنِ طاهر ، وأمر أيضاً بقتلِ أخيه شهريارَ .

وجعل الحسنُ بنُ الحسينِ ، وعبدُ اللهِ بنُ طاهر وغيرُهما من أمراءِ المعتصمِ وقوادهِ يتبعون أصحابَ مازيّارَ حتى استأصلوهم جميعاً ، فغضب مازيّارُ لذلك غضباً شديداً وأصيبَ بالاحباطِ ،وشعر بالفشلِ والخيبةِ فأطلق سراحَ جميعِ الأسرى من جنودِ الخليفةِ والعمالِ والفلاحين من أهلِ الأمصارِ ليستحلَ قلوبهم ، ويضمنَ ولاءَهم إن حدثَ وتفاقمَ الأمرُ وانقلب عليه .

القبضُ على مازيّارَ

بعد معاركَ كثيرةٍ أُلقيَ القبضُ على مازيّــــارَ ذلــك أن الحسنَ بنَ الحسين كان يلاحظهُ من مكانٍ لآخرَ حتى ظفــرَ بــه صدفةً في طريقِ (لورةَ) وكان الوقتُ ليلاً .

يقولُ أحدُ رجالِ الحسنِ: وأقبل الليلُ وإذا بفرسانٍ بيـــن أيديهُمُ الشمعُ مشتعلاً مقبلين من طريقِ (لورةَ) فقال الحسنُ: أيـن طريقُ لورةَ...؟

فقلتُ: أرى عليه فرساناً ونيراناً ، وأنا داهــشٌ لا أقــفُ على حقيقةِ الأمرِ ، حتى قرُبتِ النيرانُ ، فنظرتُ فإذا المازيّـــارُ مع القوهيارِ وبعضِ الجندِ ، فأمر الحسنُ رجلين مـــن أصحابـــهِ فقبضا عليه ، وأرسله معهما الـــى أمـــيرِ المؤمنيـــنَ المعتصـــمِ ومضى الحسنُ ومَنْ معه الى قصرِ مازيّـــارَ فأحرقَـــهُ وأبنـــاءَه أسرى .

وجاء في بعضِ الرواياتِ أنَّ مازيّارَ كان في الصيدِ فلم يشعُرْ إلا والخيلُ تحيطُ به ، فقبض عليه الجندُ وأخذوه الى عبـــدِ اللهِ بنِ طاهرٍ ، الذي جعل يحققُ معه ، ويسألهُ عن مراسلاتِهِ مع الأفشينِ ، ووعَدَهُ إن هو أظهرها له أن يسألَ له الصفحَ عنه عند المعتصمِ فأمَرَّ مازيّارُ بها وأطلَقَهُ عليها ، فأخذها عبـــدُ اللهِ بـــنُ طاهر ، وأرسلها هي ومازيّار مع إسحاقَ بنِ إبراهيمَ ، وأمـــره أن لايسلمها إلا لأميرِ المؤمنين ، ففعل إســـحاقُ ذلـــك ، فســـأل

المعتصمُ مازيّارَ عنِ الكتبِ فأنكرها فضربه بالسوطِ حتى مــات وصلبه الى جانبِ بابكَ ، والله أعلمُ.

وقيل غيرُ ذلك كما سيأتي في الفصلِ التالي أنْ شــاء اللهُ تعالى .

القبضُ على الأفشينِ

تقدم أن الأفشينَ كان الساعدَ الأيمن للمُعتصمِ والسيفَ البتارَ الذي يضربُ به ، وقد وضع المعتصمُ فيه كلَّ الثقةِ وأولاه جميعَ الأمورِ ، وأطلق يدَهُ في كلِ شيئٍ ، حتى غدا كأنه أمينُ أسرارهِ ، وأوليٌّ عهدِهِ من بعدِهِ...!

فكفر الأفشينُ النعمةَ ، وجحد الفضلَ ، وتنكَّرّ للجميلِ واستبدل بالنعمةِ جحوداً وبالفضلِ تأمراً وبالجميلِ عداوةً وبالإحسانِ إساءةً إنتصاراً لمجوسيتِهِ وتمسكاً بكفرهِ ، وتأمراً على الإسلام وأهلِهِ ، وغدراً باليدِ التي مُدَّتْ إليه بالمعروفِ والإحسانِ ، وطعناً بصاحبِها من الخلفِ ، ومكرَ السيءِ ولا يحيقُ المكرُ السيءُ إلا بأهلِهِ .

وما هذه النتيجةُ السيئةُ إلا بسبب ثقةِ المعتصمِ المطلقةِ بالأفشينِ وهو فارسٌ مجوسيٌّ منتصرٌ لأبناءِ جنسِهِ من الكفرةِ عبدةِ النارِ ، يعملُ في الخفاءِ ليعيدَ مجدَ فارسَ ، ويثبتَ دينَ المجوسِ ، ويقضيَ على دينِ الإسلام ، وعندما يوكَلُ الأمرُ لغيرِ أهلِهِ ، ويقومُ الغرباءُ والمرتزقةُ والطامعون من كلِ لونٍ بحمايةِ دولةٍ ما أواللإشرافِ على أمورِها ، تصيرُ هذه الدولةُ لعبةً في أيديهم ، يتحكمون فيها كما يشاءون ، ويتصرفون بمقدراتِها كما يريدون ، وهذا ما حصل للعباسيين حين فضلوا العنصرَ الفارسيَّ والتركيَّ ، وأسندوا إليهم وظائفَ سياسيةً وعسكريةً

هامةً وأبعدوا العربَ عنها وهم حملةُ أعباءِ هذه الرسالةِ الإنسانية ، والمسئولون عنها أمام اللهِ تعالى: (وإنه لَذكرٌ لـك ولقومِـكَ وسوف تسألون)[1] . صدق اللهُ العظيم .

ولقدِ استغلَّ الأفشينُ مركزَهُ القياديَّ ، ومكانتهُ من أميرِ المؤمنين المعتصمِ لمصلحتِهِ ومصلحةِ ديانتِهِ المجوسيةِ تمامَ الأستغلالِ ، فكانتِ الأموالُ والهدايا تأتيهِ من أرمينيةَ وأَذَرْبيجانَ فيوجُهها إلى (أشروسَنَةَ) حتى إذا طال عليه الأمدُ ، ومضى على فعلِهِ هذا فترةٌ طويلةٌ اكتشفَ الأمرَ عبدُ الله بنُ طاهرٍ الذي كانت تلك الأموالُ والهدايا يمرُّ به ، فأخبر عنها المعتصم الذي كتب إليه يأمُرُهُ بإعلامِهِ بجميعِ ما يحدثُ من طرفِ الأفشينِ فكان ابنُ طاهر يراقبُ تحركاتِ جندِ الأفشينِ في ذهابهمِ وإيابِهِم ، ولربما اعترضهم أحياناً فيراهم محَّملين بالأموالِ الوفيرةِ التي لم يصلْ منها شيئٌ إلى المعتصمِ فكتب ابنُ طاهرٍ إلى الأفشين يستفهمُ منه حقيقة تلك الأموال ، فردَّ عليه الأفشينُ يقولُ: معاذَ اللهِ ، إنَّ مالي ومالَ أميرِ المؤمنين واحدٌ ، وسأله إطلاقَ قومٍ كان ابنُ طاهرٍ قد أسرهم في بعضِ المناوشاتِ ، فاستجاب له فأطلقَهمُ ، فكان ذلك سببَ الخلافِ بينهما .

---

(١) الآية /٤٤/ من سورة الزخرف .

واستمرَّ عبدُ الله بنُ طاهرٍ بتتبعِ الأفشين حتى علم أنه على اتصالٍ دائمٍ بمازيّار ، وأن مصلحةً مشتركةً تجمعُ بينهما فأخبر ابنُ طاهرٍ المعتصمَ بذلك فتحقق من الأمرِ بنفسِهِ فأمر بالقبضِ عليه ، ثم أُحضرَ بين يديه وأُعِدَّ له مجلسٌ للتحقيق فيه محمدٌ بنُ عبدِ الملكِ الزياتِ وزيرُ المعتصم ، وأحمدُ بنُ أبي دؤادَ قاضية ، وإسحاقُ بنُ إبراهيمَ ، وغيرُهم من الأعيانِ ورجالِ الدولةِ وأمرَ المعتصمُ بإحضارِ مازيّارَ ، والمؤيدَ والمرزبانِ بنِ بركش ، وهو أحدُ ملوكِ السُّغْدِ ، ورجلين من أهلِ السُّغدِ فأدخلَ الرجلان وعليهما ثيابٌ رَثّةٌ وتولّى التحقيق الوزيرُ الزياتُ ، فقال للرجلين: ما شأنكما...؟

فكشفا عن ظهورِهِما ، فقال للأفشينِ: أتعرفُ هذين الرجلين...؟

قال: نعم ، هذا مؤذنٌ وهذا إمامٌ يعنى مسجداً بأشروسنةَ فضربتُ كلَّ واحدٍ منهما ألفَ سوطٍ ، وذلك أنَّ بيني وبين ملكِ السُّغدِ عهداً وشرطاً أن أتركَ كلَّ قومٍ على دينهم ، فوثبَ هذان على بيتٍ كان فيه أصنامُ أهلِ أشروسنةَ فأخرجا الأصنام وجعلاه مسجداً ، فضربتُهما عل هذا .

قال الوزيرُ بنُ الزياتِ: ماكتابٌ عندك قد حَلّيتَهُ بالذهبِ والجوهرِ فيه الكفرُ باللهِ تعالى...؟

قال: كتاب ورثته عن أبي فيه من آداب العجم وكفرهـم فكنت آخذ الآداب وأترك الكفر ، ووجدته مجلى ، فلم أحتج الـى أخذ الحلية منه ، وما ظننت أن هذا يخرج من الإسلام .

ثم تقدم االموبذ فقال: إن هـذا يـأكل لحـم المخنوقـة ويحملني على أكلها ، ويزعم أنها أفضل من المذبوحة وقال لـي يوما: قد دخلت لهؤلاء القوم في كل شيئ أكرهه ، حتى أكلـت الزيت ، وركبت الجمل والبغل غير أني الى هذه الغاية لم تسـقط عني شعرة [1]، ولم أختتن .

فقال الأفشين: أخبروني عن هذا أثقة هو في دينـه...؟ ـ وكان مجوسيا .

فالوا: لا .

قال: فما معنى قبول شهادته...؟

ثم أخذ يحاجج الموبذ فقال له: أليس كنت أدخلك علي وأطلعـك على سري...؟

قال: بلى .

قال: لست بالثقة في دينك ، ولا بالكريم في عـهدك إذا أفشيت سرا أسررته إليك .

ثم تقدم المرزبان فقال: كيف يكتب إليك أهل بلدك...؟

---

(١) يعني أخذ شعر العانة .

قال: لا أقولُ .

قال: أليس يكتبون بكذا... وكذا...؟

قال: بلى .

قال: أليس تفسيرُه بالعربيةِ: الى إله الآلهةِ مـــن عبــدِه فلانِ بنِ فلانٍ...؟

قال: بلى .

فقام الوزيرُ بنُ الزياتِ فقال: المسلمون لايحتملون هــذا فما أبقيتَ لفرعونَ...؟

قال: هذه كانتْ عادتهَم لأبي وجدّي ولي قبـــل أنْ أدخـلَ فـي الإسلامِ ، فكرهتُ أن أضعَ نفسي دونهم فتفسدَ عليَّ طاعتُهم . ثم يقدمَ مازيّارُ ـــ هذا بناءً على الرواية المخالفةِ للروايةِ الســابقةِ التي تقدمَتْ معنا بآن أميرَ المؤمنين ضربَهُ بالسوطِ حتى مـــات وهذه الروايةُ تقولُ بأنه مازال حياً... واللهُ أعلم...؟

فقالوا للأفشينِ: هل كاتبتَ هذا...؟

قال: لا .

قالوا المازيّارَ: هل كتب إليك...؟

قال: نعم كتب أخوه الى أخي قوهيارَ أنه لم يكنْ ينصُــرُ هذا الدينَ الأبيضَ غيري وغيرُك ، فأما بابَكُ فإنه لحمقِــهِ قتــل نفسه ، ولقد جهدْت أنْ أصرفَ عنه الموتَ فأبى لحمقـــهِ إلا أن أوقَعَهُ فإن خالفتَ لم يكنْ للقومِ مَنْ يرمونك به غيري ، ومعـــيَ

الفرسانُ وأهلُ النجدةِ ، فإن وجّهتُ إليكَ لم يبقَ أحدٌ يحاربُنـــا إلا ثلاثةُ: العربُ والمغاربةُ ، والأتراكُ .

والعربي بمنزلةِ الكلبِ واطرح له كسرةً واضرب رأســهُ ، والمغاربةُ أكَلَةُ رأسٍ ، والأتراكُ ، فإنما هي ساعةٌ حتى تنفـــذ سهامُهُم ، ثم تجولُ الخيلُ عليهم جولةً فتأتي على آخرِهِم ويعودُ الدين الى مالم يزلْ عليه أيامَ العجمِ .

فقال الأفشينُ: هذا يدّعي أنَّ أخي كتب الى أخيه لا يجبُ عليَّ ، ولو كتبتُ هذا الكتابَ إليه لأستميلَهُ اليَّ ويثق بـــي ، ثـــم أقبضُ عليه وأحظى به عند الخليفةِ كما حَظَي عبد اللهِ بنُ طاهرٍ.

فزجَرَه القاضي ابنُ أبي دؤادَ ، وقال له: أمُطَهرٌ أنتَ...؟

قال: لا .

قال: فما منعك من ذلك وبه يمامُ الإسلامِ...؟ والطُّـــهورُ من النجاسةِ ...؟

فقال الأفشين: أو ليس في الأسلامِ استعمالُ التقيةِ...؟

قال: بلى .

قال: خفتُ أن أقطع ذلك العضوَ من جسدي فأموتَ .

فقال: أنتَ تطعنُ بالرمحِ وتضربُ بالسيفِ ، فلا يمنعُـك ذلك أن يكونَ ذلك في الحربِ ، وتجزعُ من قطعِ قلفةٍ...؟

قال: تلك ضرورةٌ تصيبُني فأصبرُ عليها ، وهذا شــيئُ أستجلبُهُ .

فقال القاضي ابن أبي دؤاد لبغا الكبير: عليك به فضـوب بيده على منطقة فجذ بها ، وأخذ بمجامع ثيابه من صدره الـــــى عنقه ، وقاده الى سجنه ، وقد تثبت إدانته ، وظهر كفره وتــآمره على الإسلام وأهله ودولته.

موت الأفشين

بعد أن ثبتت إدانة الأفشين وسيق الى السجن وكل أمـــره الى حمدون بن إسماعيل ، فجعل الأفشين يعتذر إليه ، ويســـتدر عطفه ، ويطلب منه أن يكون وسيطا بينه وبين أمير المؤمنيـــن المعتصم ، فقال له: قل لأمير المؤمنين إنما مثلي ومثلك كرجـل ربى عجلا حتى أسمنه ، وكبر ، وكان له أصحاب يشـــتهون أن يأكلوا من لحمه ، فعرضوا بذبحه ، فلم يجبهم ، فاتفقوا جميعـــا على أن يقولوا: لم تربي هذا الأسد ، فإنه إذا كبر رجـــع الـــى جنسه...!

فقال لهم: إنما هو عجل .

فقالوا: هذا أسد ، فسل من شئت .

وتقدموا الى جميع من يعرفونه ، وقالوا لهم: إن ســـألكم عن العجل فقولوا له: إنه أسد .

وكلما سأل إنسانا قال: هو سبع ، فأمر بالعجل فذبح .

ولكني أنا ذلك العجل كيف أقدر أن أكون أســدا...؟ الله... الله في أمري .

يقول سجانه حمدون: فتحت عنه ، وبين يديه طبق فيـــه فاكهة قد أرسله المعتصم مع ابنه الواثق ، وهو على حاله ، فلـــم ألبث إلا قليلا حتى قيل إنه يموت ، أو قد مات ،فحمل الـــى دار

إيتاخ فمات بها ، ثم أخرجوه وصلبوه على باب العامة ليراه الناس ، ثم ألقي وأحرق بالنار .

ويرى أنهم بحثوا في بيته بعد وفاته فرأوا تمثال إنسان من خشب عليه حلية كثيرة وجواهر ثمينة ، وفي أذنيه حجران مشتبكان عليهما ذهب ، فأخذوهما وهم يحسبونهما جوهرا وكان ذلك ليلا ، وفي الصباح نزعوا عنهما الذهب فإذا تحته جوهر ثمين جدا .

ووجدوا أصناما مختلفة ، وكتبا من كتب المجوس فجمعوها وأضرموا عليها النار فأتت على الجميع .

ويقول حمدون: وسألته هل هو مطهر[1] أم لا...؟ فقال: الى مثل هذا الموضع ، إنما قال لي هذا والناس مجتمعون ليفضحني إن قلت نعم ، قال لي تكشف والموت كان أحب الي من أن أتكشف بين يدي الناس ولكن إن شئت أنكشف بين يديك حتى تراني .

فقلت له: أنت صادق .

فلما بلغ المعتصم رسالته أمر بقطع الطعام والشراب عنه ، إلا القليل ، حتى مات .

---

(١)الطهر : الختان ، أي هل هو مختون... ؟

وقال أبو تمام بذم الأفشين :

ما كان لولا قبح غدره خيذر ليكون في الإسلام عام فجار[1]

مازال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطفى الزناد الواري[2]

وقال في موضع آخر من القصيدة في أبيات يحرض فيها أمير المؤمنين المعتصم على استئصال آل الأفشين:

يا قابضا يد آل كاس عادلا أتبع منهم بيسار[3]

ألحق جبينا داميا رملته بقفا وصدرا بصدار

---

(١) خيذر ، أو حيدر هو اسم الأفشين ، وعام الفجار: يقصد به حرب الفجار ، وإنما سميق الحرب بذلك ، لأن كنانة وقيس عيلان واستحلوا فيه الحارم بينهما وقد وقعت ورسول الله صلى الله وسلم ابن عشرين سنة.

(٢) والزناد الواري: يقصد به أن الأفشين أختار لنفسه أن تكون نهايته الإحراق بالنار .

(٣)آل كاوس: آل الأفشين ، لأن اسمه: خيذر ، أو حيدر بن كاوس .

التعريف بمازيّارَ

مازيّارُ: أصلُهُ فارسيٌّ مجوسيٌّ مازيّارُ بنُ قــارنَ بــنِ بندارَ ، دخل في الإسلام نفاقاً ومكراً ، وسَــمّى محمــداً وكــان صاحبَ جبالِ طبرسانَ .

وكان واحداً من الذين اصطفاهُمً المأمونُ بـــنُ الرشــيد وقرَّبهم منه .

وفي سنةِ أربعٍ وعشرين ومائتين ، وفي عهدِ المعتصــمِ أعلن العصيانَ بطبرستانَ ودعا الى بيعتِهِ وخلعِ المعتصمِ ، كمــا تقدم، فكتب المعتصمُ الى عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ بنِ الحسين يــــأمرُهُ بحربِهِ فسيَّر ابنُ طاهرٍ لحربِهِ عمَّهُ الحسنَ ابنَ الحسينِ، فكــانت بينهما حروبٌ كثيرةُ انتهتْ بأسرِهِ وحملِهِ الى بغدادَ وقيــل الــى سامرا التي بناها المعتصمُ ، ثم أتخذها مقراً له .

فأقرَّ مازيّارُ على الأفشينِ أنه حرضه على الخروجِ والعصيانِ ، واعترف أنه والأفشينُ اجتمعا على مذهبٍ من مذاهبِ الثنويةِ(١) والمجوسِ .

---

(١) الثنويةُ : فرقةٌ من فرقِ الكفرِ والضلالِ تقولُ بتناســخِ الأرواحِ ، وذلك أن (ماني) الذي كان من أئمةِ الثنويةِ قال في يعضِ كتبـــه: إنَّ الأرواحَ التي تفارق الأجسامَ نوعان :

ـ أرواحُ الصّديقيـن ، وأرواحُ أهـلِ الضلالـةِ فـأرواحُ الصديقين إذا فارقَتْ أجسادها سَرَتْ في عمود الصبح الى النورِ الـذي فوقَ الفلكِ ، فبقيَتْ في ذلك العالمِ على السرورِ الدائمِ .

ـ وأرواحُ أهلِ الضلالـةِ إذا فـارقَتِ الأجسـادَ وأرادتِ اللحوقَ بالنورِ الأعلى رُدَّتْ منعكسة الى أسفلِ ، فتتناسخُ في أجسـامِ الحيوانات الى أن تصفوَ من شوائبِ الظلمةِ ، ثم تلحقُ بالنورِ العالي.

وماني هذا: هو ماني بنُ ماش ، تنسبُ إليه طائفةُ المانويةِ وإن كـان في الأصل مجوسياً ثَنَوياً .

كان مانـي مجوسياً ، فأحّدثَ ديناً ودعا إليه ، وزعم أنَّ صانعَ العـالمِ اثنان أحدهما فاعلُ الخيرِ وهو نورٌ ، وثانيهما فاعلُ الشرِ وهو ظلمـةٌ ، وهما قديمان ، لم يزالا ، ولن يزالا ، وهما مختلفان فـي النفـسِ والصورةِ ، متضادّان في الفعلِ والتدبيرِ .

وقد ظهر ماني في أيامِ كسرى ، سابورَ بنِ أردشيرَ وتبعـه خلقٌ عظيمٌ من المجوسِ ، وادّعوا له النبوةَ ، وما زالَ كذلك الـى أن قُتِلَ في زمنِ كسرى سابورَ بنِ بهرام .

وقيل: إن قاتل مانـي ، هو بهرامُ بنُ هرمزَ بنِ سابورَ.

وقيل غيرُ ذلك والله أعلم .

انتهى من كتابِ (الفرق بين الفِرَقِ) بتحقيق محمد محي الدين عبـد الحميد ، رحمه الله تعالى .

فضرب المازيار بالسوط حتى مات بعد أن شهر وصلـــب إلـــى جانب بابك الخرمي .

وقد حاول المازيار أن يغري أمير المؤمنين المعتصـــم ويرغبه في أموال كثيرة يحملها إليه إن هو عفا عنه ومن عليـه بالبقاء ، فأبى ذلك وتمثل قول أبي تمام حبيب بن أوس .

إن الأسود أسود الغيل همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

وقد روى المسعودي في مروج الذهب : أن مازيار حين صلب الى جانب بابك الخرمي مالت خشبة بابك فتدانت أجسامها ، وقد كان صلب في ذلك الموضع ناطس[1] بطريق عموريـــة ، وقـــد انحنت نحوها خشبته ففي ذلك يقول أبو تمام حبيب بن أوس مـــن كلمة له:

ولقد شفى الأحشاء من برحائها إذ صار بابك جار مازيار

ثانيه في كبد السماء ولم يكن لاثنين ثان إذ هما في الغار

فكأنما انحنيا لكليما يعلوا يا عن ناطس خبرا من الأخبار

هذا... وقد تقدم معنا خبر مازيـــار مفصـــلا ، والحمـــد لله رب العالمين .

---

(١) ناطس ، ويروى مناطس ، وباطس ، وهو الذي قاده المعتصم أسيرا يوم وقعة عمورية .

خبر المبرقع

انتهت معركة عمورية ، وفتحها الله تعالى على عبــاده المؤمنين فتحا مبينا ، ونصرهم فيها على عدوهم نصرا عزيــزا وذل الكفر وأهله ، وأعاد للإسلام وجهه المشـــرق وللمســلمين عزتهم وكرامتهم ، لكن المعركة مـــع الطــامعين والمســتغلين والمتآمرين ظلت قائمة ومشتعلة طيلة فــترة خلافتـــه ، ولبــث المعتصم صادرا شامخا يتصـــدى لـــرؤوس الفتــن وزعمائـــها ويضربُ عليهم بكل قوةٍ وحزمٍ ، ويطاردُهم من مكـــانٍ لآخـــر حتى استأصلهم عن آخرِهم وقضى عليهم وأخمد ثوراتِهمِ وأطفأ نيرانَ فتنِهِم ، ولكنْ سنةُ اللهِ في خلقهِ أنْ يبقى الصراعُ قائماً بيـن الخيرِ والشرِ ، والق والباطلِ الى يومِ القيامةِ لايلبثُ الباطلَ بعــد ذلك أنْ يهزمَ ، ويخرَّ صريعاً مجندلاً تصديقاً لقولِ الحق تبــارك وتعالى بل نقذفُ بالحق على الباطلِ فيدفعُهُ فإذا هو زاهـــقٌ)[1]

صدق الله العظيم .

وكذلك بقيَ المعتصمُ يقاومُ الشرَّ وأهلهُ حتى وفاتِهِ ، ففي سنةِ سبعٍ وعشرين ومائتين خرج عليه رجلٌ من المسلمين يقــالُ له أبو حربِ المبرقعُ اليمانيُّ ، وكان سببُ ذلك أنَّ بعضَ الجنـــدِ أراد النزولَ في بيتهِ وهو غائبٌ ، فمنعَتْهُ زوجتُهُ

---

(١) الآية /١٨/ من سورة الأنبياء .

فضرب بها بسوط ، فأصاب ذراعها ، فأثَّر فيها رجـــع أبو حربٍ الى منزلِهِ شكَتْ إليه ما فعل بها الجنديُّ ، فأخذ سـيفَهُ وقصد الجنديَّ فقتلَهُ وهرب ووضع على وجهِـــهِ برقعــاً ولـــذ بالجبالِ فاعتصم بها فكان يظهرُ بالنهارِ مبرقعاً ، حتى عُـــرِفَ بين الناسِ بالمبرقعِ وجعلوا يقصدونه وينضمون إليه ، حتى بلـغ عددُهم مائةَ ألفٍ معظَمهم من الفلاحين ، قيل كان فـــي بعــضِ جبالِ الأردن ، وكان يزعمُ لأتباعهِ أنه أمويٌّ فاعتقد أصحابُـــهُ أنه السفيانيُّ الذي أخبر عنه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

هذا... وكان أمير المؤمنين المعتصمُ في مـــرضِ موتِـهِ فبعث لقتالِهِ رجاءَ بنَ أيوبَ الحضاريَّ على رأسِ نحوِ من مائـــةِ ألفِ جندي .

فجعل ابنُ أيوبَ يستطلعُ أمرَهْ فرأى أتباعَهُ كثيرين جـداً ، فكره قتالَهُ وعسكرَ قريباً ، حتى انشـــغل أتباعُـــهُ بالزراعـةِ والعملِ في الحقولِ ، ولم يبقَ مع المبرقعِ سوى ألفٍ أو ألفَينِ .

في هذه الظروفِ الحرجةِ تُوفيَ المعتصمُ ، ووليَ الواثقُ خلافةَ المسلمين ، وثارتِ الفتنةُ بدمشقَ ، فأمر الواثقُ رجاءَ بـنَ أيوبَ بقتالِ مَنْ أراد الفتنةَ ، ثم يعودُ إلى المبرقعِ فينـــهيَ أمَــرهُ ففعل ذلك وعاد إلى المـــبرقعِ فنـــاجزَهْ فأسرهُ ، وأخــذه الـــى (سُرَّ مَنْ رأى) وهي سامراء.

وهكذا بقيتِ الفتنُ قائمةً ، والثوراتُ مشتعلةً والمؤامراتُ والدسائسُ مستمرةً منذُ تولّي المعتصمِ الخلافةَ الـــى أنْ مـــاتَ ، وبموتِهِ طويَتْ صفحةٌ من الكفاحِ والنضالِ في ســـبيلِ تثبيـــتِ الخلافةِ العباسيةِ ، وتوطيدِ أركانِها ، وتوسيعِ رقعتِها ، والدفـــاعِ عنها لرفعِ رايةِ الإسلام ، وعزةِ وحدتهِ ، وترابطِ أبنائهِ .

خاتمة

في وفاة المعتصم

توفي المعتصم رحمه الله تعالى يوم الخميس الثامن عشر من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين ، وعمره ثمان وأربعون سنة .

ولما حضرته الوفاة جعل يقول: (حتى إذا فرحوا بما أتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون)[1] ، ثم قال: لو علمت أن عمري قصيرٌ ما فعلتُ .

وقال: ذهبَتِ الخيلُ فلا حيلة .

وروي أنه قال في مرضِ موتِهِ: اللهم إني أخافُكَ من قَبلي ولا أخافُكَ من قَبلِكَ ، وأرجوك من قَبلِكَ ولا أرجوكَ من قَبلي .

قال زنامُ الزامرُ: أفاق المعتصمُ في علتِهِ التي مات فيها ، فركب في الزّلاّلِ في دجلةَ وأن معه ، فمرَّ بإزاءِ منازله فقال: يازنام أزمرلي

يامنزلاً لم تبلَ أطلالُهُ	حاشا لأطلالكَ أنْ تبلى
لم أبك أطلالك لكنني	بكيت عيشي فيك إذ ولي
والعيش أولى ما بكاه الفتى	لا بد للمخزون أن يسلى

قال: فمازالتُ أزمرُ له هذا الصوتَ ، وأكــررُهُ ، وقــد تناول منديلاً بين يديه ، فمازال يبكي وينتحبُ حتى رجــع الــى منزلِهِ .

وكانت خلافتُهُ ثمانيَ سنين وثمانيةَ أشهرٍ ويومين.

ولقد رثاهُ الشعراءُ والأدباءُ ، والمحبــون والأصدقــاء ، وقال وزيرُهُ محمدٌ ابنُ عبدِ الملكِ الزيات يرثيه:

قد قلتُ إذ غيبوكَ واصطفقَتْ عليك أيدٍ بالتُربِ والطينِ

اذهب فنعمَ الحفيظُ كنت على الـــ دّنيا ونعم المعينُ للدينِ

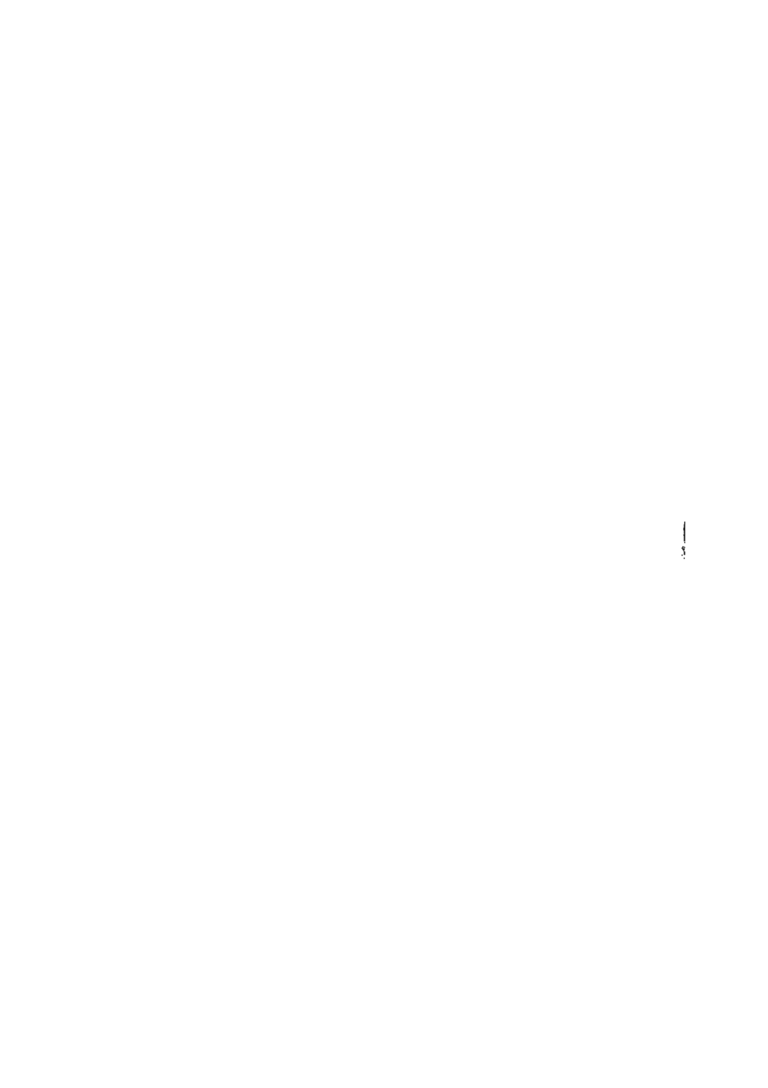
لايــجبرُ اللهُ أمــةً فــقدَتْ مثلكَ إلا بمثلِ هارونِ

وهذا آخرُ ما يسَّرَ اللهُ تعالى لإعدادِ هذه الرسالةِ المتواضعةِ وقـدِ اعتمدتُ في إعدادِها على عددٍ من المراجعِ التاريخيةِ والتراثيــةِ وهي البدايةُ والنهايةُ لابنِ كثيرٍ ، وتاريخِ الطبري ، والكامل في التاريخِ لابنِ الأثــير ، مــروج الذهــب للمســعودي ، الفــرق للأسفرانيني شرح ديوان أبي تمام للتبريزي ، لسانِ العربِ لابــن منظورٍ المصباح المنير ، معجم البلدان لياقوتَ الحموي.

تمت الرسالةُ والحمد للهِ ربِ العالمين

وإلى اللقاء مع معركةٍ إسلاميةٍ خالدة

الفهرس



مَعارك عَربيّة خَالدة

١٦

معركة الزلاّقة

إعـــداد

عبد القادر الشيخ ابراهيم

دار القلم العربي



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

1421 هـ - 2001 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

ص.ب : 78 هاتف : 2213129 فاكس : 2212361 21 963+

البريد الالكتروني : E-mail : qalam_arabi@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

معركة الزلاّقة

التعريف بها

الزلاّقةُ : مكانٌ واسعٌ من الأرضِ ، يقعُ قريباً من بَطَلْيوسَ وبين الموضعين أربعةُ فراسخَ .

وبَطَلْيوس : مدينةٌ كبيرةٌ بالأندلسِ ، تقعُ على نهرِ (آنه) غربيَّ قرطبةَ .

وسُمّيَ المكانُ بالزّلاقةِ ، من قولِهم : مكانٌ زلْقٌ ، أي دَحْضٌ ، وزَلِقَتْ رجلُهُ تزْلَقُ زلقاً .

والزّلاّقةُ : الموضعُ الذي لا يمكنُ الثبوتُ عليه من شدةِ زَلقِهِ ، والتشديدُ فيه للتكثيرِ .

وعلى أرضِ الزّلاقةِ ، اجتمعت جيوش المسلمين بقيادةِ السلطانِ يوسفَ بنِ تاشفين رحمه اللهُ تعالى ، وجيوشُ الفرنجةِ بقيادة الأذفونشِ ، أو ألفونسو ملكِ الإفرنجِ ، ودارَتْ بينهما معركةً قويةٌ وطاحنةٌ أسفَرَتْ عن هزيمةٍ منكرةٍ للفرنجةِ انتهت بموتِ ألفونسو جوعاً وعطشاً ، وقهراً وحسرةً لما أصابه وحلَّ بجيشِهِ من هربٍ ، وقتلٍ ، وتشريدٍ ، وضياعٍ في أرضِ اللهِ الواسعةِ ، وفوق أرضِ الزّلاقةِ انتصر المسلمون انتصاراً ساحقاً في يومٍ عظيمٍ أغرَّ اجتمع فيه المسلمون تحت قيادةٍ واحدةٍ ، وقاتلوا من أجلِ قضيةٍ مشتركةٍ وعادلةٍ ، وصمدوا صموداً مشرفاً ، وثبتوا ثباتاً عظيماً ، فاستحقوا النصرَ والعونَ والتأييدَ من الله تعالى .

وإننا إذ نذكرُ معركة الزّلاقةِ نذكر معركةً خالدةً من معاركِ تاريخنا المجيدِ ، ويوماً من أيامِ أمتنا الحرةِ الأبيةِ ، وصفحةً عظيمةً ومشرفةً من صفحاتِ مجدنا العريقِ الحافلِ بالنصرِ ، المشرقِ بالبطولاتِ الكثيرةِ والتضحياتِ الجسيمةِ ، والمواقفِ النبيلةِ ما يجعلُنا نذكرُها بكلِ فخرٍ واعتزازٍ ، ونرفعُ رؤوسنا بكلِ شموخٍ وإباءٍ ، ونقفُ إجلالاً واحتراماً لسلفِنا الصالحِ ،

وأجدادنا العظامِ الذين بنوا لنا هذا المجدَ المؤثـــل ، والتـــاريخَ الحافلَ بالعزةِ والكرامةِ ، والشرفِ والتضحيةِ والإباءِ ، وضحَّوا بأموالِهم ودمائِهم وأعصابِهِم وكلِّ ما يملكـــون لرفـــعِ رايـــةِ الإسلامِ عاليةً خفاقةً ، ولنشرِها في مشرقِ الأرضِ ومغربِـــها، فكانوا كما تحدَّث عنهمُ القرآنُ الكريمُ (خيرَ أمـــةٍ أخرِجَـــتْ للناسِ) .

ظهورُ أمرِ بلاي

تقولُ المراجعُ التاريخيةُ ، كان أولَ من ألَّبَ النصارى مـن أهلِ أشتوريشَ من جلّيقيَّة [1] وجمعهم على قتـــالِ المســـلمينَ وإخراجِهِم من الأندلسِ رجلٌ يقالُ له : بلاي ، وكان بـــلاي ابنَ أميرٍ من أمراءِ القوطِ يُسمّى برمودو ، وابنَ أخي لُذريـــقَ ، وأنه اختلف مع عمِهِ لذريق فنفاه هذا عن طُلَيْطُلَةَ قبيل دخـــولِ المسلمين جزيرةَ الأندلسِ ، فذهب إلى أشتوريشَ وجعل نفسَـــهُ أميراً عليها .

---

[1] جليقية : ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالي الأندلس في أقصاه من جهة الغرب .

وفي أيامِ الحرِ بن عبدِ الرحمن الثقفي هرب من قرطبــةَ ، وذلك في السنةِ السادسةِ من فتحِها ، وهي سنةُ ثمانٍ وتســعين فلجأ إلى أربونةَ [1] من أرضِ الفرنجةِ ومعه ثلاثمائةِ رجلٍ مــن فلِّ النصارى ، فتبعَهُمُ المسلمون حتى لجأ هؤلاءِ إلى صخــرةٍ في جبلٍ من جبالِ أربونةَ بجلّيقيَّةَ ، فـــلاذوا بهـــا ، فحـــاصرهُمُ المسلمون ، وقاتلوهم حول تلك الصخرةِ فمات أكثرُهم جوعاً وعطشاً ، ولم يبقَ منهم سوى ثلاثين رجلاً وعشـــر نســوةٍ، وليس لهم طعامٌ إلا العسلُ يأخذونه من شـــقوقٍ بـــالصخرةِ فيقتاتون به ، ولم يزلْ أمرُهم كذلك حتى ملَّ منهم المسلمون ، واستصغروهم ، ولم يهتمّوا بشأنِهم ، وقالوا : ثلاثون علجاً [2] ما عسى أن يجيءَ منهم .. !! .. ؟؟

فتركوهم وانصرفوا عنهم ، فكان ذلك فرصـــةً لبـــلاي ورجالِهِ أن يتحركوا في ذلك الجبلِ ، ويتدربوا على فنِّ القتـــالِ استعداداً لشنِّ إغاراتِهم على المســـلمين الذيـــن انهمكـــوا في

[1] أربونة : بلد في طرف الثغر من أرض الأندلس ، بينها وبين قرطبة ألف ميل .

[2] العلج : الرجل الضخم من كفار العجم ، وبعض العرب يطلق العلج على الكافر مطلقاً . والجمع : علوج وأعلاج .

اللذائذِ، وانغمسوا في الشهواتِ ، واتّخذوا لأنفسِهم القصـــورَ والقينات ، وأحيطوا بالجواري والراقصاتِ . وعكفـــوا علـــى أسبابِ اللهوِ والعبث والمغنياتِ ، وركنوا إلى متاعِ الدنيـــا ، ونسُوا الآخرةَ ولم يعملوا لها ، فأذاقَـــهُمُ اللهُ لبـــاسَ الجـــوعِ والخوفِ بما كانوا يصنَعون .

هذا ... وفي الوقتِ الذي كان المسلمون مشـــغولين في قصورِهِم وجواريهِم عاكفين على لهوِهِم وعبثِهِم ، كان بـلاي وأصحابُهُ الثلاثون ماضين في التدريبِ والاستعدادِ للانقضـاضِ على المسلمين بشتّى أنواعِ الأسلحةِ والقتالِ حتى اكتسبوا قـوةً في أبدانِهِم ، وإرادةً في نفوسِهِم ، وأصبحوا فرســـاناً أشـدّاءَ يُحسَبُ لهم ألفُ حسابٍ .

لقد استغلوا إقامتَهم في الجبل ، فعاشوا معه ، وتأثروا بـه ، واكتسبوا منه قوةً وصلابةً في أبدانهم ، وشدةً وبـلاءً وإرادةً في نفوسِهِم، وازدادوا كثرةً وعدةً في صفوفهم .

وفي سنةِ ١٣٠ من الهجرةِ بدأ بلاي ينفّذُ ما خطّط له منـذ سنين، فهجم بجنودِهِ الأشدّاء على ثغورِ المسلمين في الأندلسِ ،

فأخذ المدنَ والثغورَ ، وعاث في الأرضِ الفسادَ ، ومضى ينشرُ فيها الشرَّ والبلاءَ والدمارَ ، فهدَمَ الحصونَ ، واحتلَّ البلادَ ، وقتلَ الأطفالَ والنساءَ ، وأحرق المزارعَ والبيوتَ ، واستباحَ الحرماتِ ، وأهلكَ الحرْثَ والنسلَ ، وفعل ما فعل دون رحمةٍ أو شفقةٍ أو إنسانيةٍ ، واستطاع أن يستوليَ على ما كان بأيدي المسلمين من ثغورِ الأندلسِ مما يلي بلادَ الفرنجةِ .

استلامُ الفونسو بعد بلاي وولدِهِ

وفي السنة الثالثةِ والثلاثين بعد المئةِ من الهجرةِ هلك بلاي المذكورُ فخَلَفَهُ ابنُهُ فافيلا الذي أقام في قومِهِ سنتْين بعد موت أبيه ، ثم مات بعده الفونسو بن بيدرو ، وهو ألفونسو الأولُ جدُّ بني الفونسو الذين استخلصوا الأندلسَ من المسلمين مدينةً... مدينةً .

وكان ألفونسو المذكورُ قد تزوّج ابنةَ بلاي ، أرمَنَيْنْدا ، لذلك قام بالأمرِ بين قومه بعد موتِ فافيلا بنِ بلاي .

فكان ألفونسو هذا يغيرُ على البلادِ بكلِ شراسةٍ ووحشية، فيهدمُ المنازلَ والبيوتَ على أهلِها ، ويحتلُّ المدنَ والحصونَ ، ويخلِّفُ وراءَه الذعرَ والخوفَ والدمارَ ، بعد أن كان الناسُ في أمنٍ من العيشِ، ودَعَةٍ ورَغَدٍ واستقرارٍ ، وصدق اللهُ العظيمُ إذ يقولُ في كتابِهِ العزيزِ :

(وضرب اللهُ مثلاً قريةً كانَتْ آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقُـــها رَغَداً من كلِ مكانٍ فكفَرتْ بأنعُمِ اللهِ فأذاقَها اللهُ لباسَ الجـــوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعون) [1](ذلك بما قدَّمَتْ أيديكُم وأنَّ اللهَ ليس بظلامٍ للعبيدِ)[2].

ولستُ أدري فقد أكونُ مغالياً حين يقـــودُني الخيـــالُ في النظرِ والتأملِ في كتابِ اللهِ تعالى ، ومن خلالِ التدبرِ في سورةِ سبأ وهي تقصُّ علينا قصةَ أهلِ سبأٍ وبطرِهم بالنعمةِ وزوالِـــها عنهم ، وتفرقِهِم بعد ذلك ، وتمزُّقِهِم كلَّ مُمَزَّقٍ .

---

[1] الآية ١١٢ من سورة النحل .

[2] الآية ٥١ من سورة الأنفال .

إنَّ التماثلَ بين قصةِ أهل سبأٍ ، وبـــين قصـــصِ ملـــوك الأندلسِ متقاربٌ جداً في العظةِ والعبرةِ ، ومختلفٌ في التصـــوفِ والسلوكِ ، ومتباعدٌ في العقيدةِ والإيمانِ .

إنَّ أهلَ سبأٍ كانوا قوماً كافرين ، بينمـــا كـــانَ أهـــلُ الأندلس قوماً مؤمنين ، والجميعُ كانوا في رزقٍ ونعيمٍ ، ورَغَـدٍ وخيرٍ عميمٍ ، فكانوا في أرضٍ مخصبةٍ ما تزالُ منـــها بقيـــةٌ إلى اليومِ ، وقدِ ارتقَوا في سُلَّم الحضارةِ والمدنيةِ ، حتى تحكّمـــوا في مياهِ الأمطارِ الغزيرةِ تأتيهم من كلِ جهةٍ ، وتنـــزلُ عليهم مـــن الجبالِ فاستغلوها أحسنَ استغلالٍ بإقامةِ خزانـــــات ضخمـــةٍ تصرّفوا فيها وجرُّوها إلى القصورِ والمزارعِ والبركِ وتحكّمـــــوا فيها وفقَ حاجاتِهم ، وكلا الفريقين بطر النعمةَ ، وانساق وراء الشهوةِ ، واستسلم للشيطانِ .

أما أهلُ سبأٍ فقد فعلوا ذلك كفراً وطغيانـــاً ، وملـــوكُ الأندلسِ فعلوا ذلك فسوقاً وجهلاً ، وكلا الفريقين زيَّنَ لهـــم الشيطانُ أعمالَهم فصَدهَّم عنِ الســـبيلِ ، فكـــانتِ النتيجـــةُ متساويةً تقريباً ، فالجميعُ بَطِروا النعمةَ ، ولم يصـــبروا علـــى

المحَنِ ، و لم يشكروا على المِنَح ، ففعل اللهُ تعالى بهم ما فعل ، لقد مَزَّقَ أهل سبأ كلَّ مُمَزَّق ، وجعلهم أثــراً بعــدَ عــينٍ ، وحديثاً يروى ، وقصةً تحكى ، تدعـــو إلى العظـــةِ والعــبرة والتأملِ...!!

وسلَّطَ على أهلِ الأندلسِ قلةً قليلـــةً فجاســـوا خـــلالَ الديارِ، وأخذوا منهمُ البلادَ ، وعاثوا فيها الفســـادَ وأهلكـــوا الحرثَ والنسلَ ، وشَرَّدوهم في أرضِ اللهِ الواسعةِ ، (ذلك بـــأنَّ اللهَ لم يكُ مغيراً نعمةً أنعَمَها على قومٍ حتى يغيّروا ما بأنفســهِم وأنَّ اللهَ سميعٌ عليمٌ) [1].

(لقد كان لسبأٍ في مسكنهم آيةٌ جنتان عن يمينٍ وشمالٍ كُلُوا مِنْ رزق ربكم واشكُروا له بلدةٌ طيبةٌ وربٌّ غفـــورٌ . فـــأعرضُوا فأرسلْنا عليهم سَيلَ العَرِمِ وبَدَّلناهم بجنتيهم جنّتين ذواتَي أُكُـــلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشيءٍ من سِدْرٍ قليلٍ . ذلك جزيناهم بما كفـــروا وهل نُجازي إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القـــرى الـــتي باركْنا فيها قرىً ظاهرةً وقدَّرنا فيها السيرَ سيروا فيـــها ليـــاليَ

---

[1] الآية ٥٣ من سورة الأنفال .

وأياماً آمنين . فقالوا ربنا باعِدْ بين أسفارِنا وظلموا أنفسَهُم فجعلناهم أحاديثَ ومَزَّقناهم كلَّ مُمَزَّقٍ إنَّ في ذلك لآياتٍ لكل صبارٍ شكورٍ . ولقد صَدَّقَ عليهم إبليسُ ظَنَّهُ فاتّبعوهُ إلا فريقاً من المؤمنين . وما كان له عليهم من سلطانٍ إلا لنعلمَ مَنْ يؤمنُ بالآخرةِ مِمّنْ هو منها في شكٍّ وربُك على كلِ شيءٍ حفيظ) [1]صدق الله العظيم .

سقوط طُلَيطلة [2]

وظلَّتِ الأحداثُ مستمرةً ، والحروبُ مشتعلةً ، والاضطراباتُ قائمةً بعد ألفونسو إلى سنةِ أربعمئةٍ وخمس وسبعين ٤٧٥ من الهجرةِ ، وفي زمنِ القادرِ باللهِ ابن المأمونِ يحيى بنِ ذي النون ، حيث هاجم الأذفونش[3] مدينةَ طُلَيْطِلَةَ ، فاستطاعوا أن يدخلوها ، ويستولوا عليها، ويطردوا مَنْ فيها من المسلمين بعد

---

(1) الآيات ١٥ ــ ٢١ من سورة سبأ .

(2) طليطلة : مدينة كبيرة بالأندلس يتصل عملها بعمل وادي الحجارة ، وكانت قاعدة ملوك القوطيين وموضع قرارهم وتقع على شاطئ نهر تاجة .

(3) الأدفونش : هم من أبناء ألفونسو المتقدم ذكره .

حصـــار دام ســـبعَ سنين ، الأمرُ الذي جعلَ الملوكَ والأمراءَ يصـــحون مـــن غفلتهِم ، ويستيقظون من نومهِم ، ويعترفون بتقصيرِهم وتفريطِهم بحِق البلادِ .

وعلى سقوطِ طُلَيْطِلَةَ ذُرِفَتْ الدموعُ ، وحزِنَتِ النفوسُ، وتألَّمَـــتِ القلوبُ ، وبكى عليها الناسُ دمعاً مدراراً ، وصاغ فيها الشعراءُ أجملَ القوافي وأعذبَ الكلماتِ وأحزنَها ، ذَرَفَتْ لها العيونُ دمعاً شجياً وخَلَّفَتْ في القلوبِ حزناً عميقاً ، منها قولُ عبدِ اللهِ بنِ فرجٍ اليحصُبيِّ المشهورِ بابن العسّالِ :

يـــا أهـــلَ أندلسٍ حُثّوا مطيَّكُمُ	فمـــا المُقـــامُ بهـــا إلا من الغلطِ
الـــثوبُ يُغسَلُ من أطرافِهِ وأرى	ثوبَ الجزيرةِ مغسولاً من الوسطِ
ونحـــنُ بـــين عـــدوٍّ لا يفارِقُنا	كـــيف الحياة مع الحيات في سفط

ويروى صدر البيت الثالث هكذا :

من جاور الشر لا يأمنْ بوائقَه	كيف الحياةُ مع الحيّاتِ في سَفَطِ

وتروى الأبياتُ هكذا :

حُثّوا رواحلَكُم يا أهـلَ أندلـس فما المُقـامُ بهـا إلا مـن الغلـطِ

السلكُ يُنثَرُ مـن أطرافِـهِ وأرى سلكَ الجزيرة منثوراً من الوسَـطِ

مَنْ جاوَر الشرَّ لا يـأمنْ بوائقَـه كيف الحياةُ مع الحيّات في سـفطِ

وقيل غير ذلك كثيرٌ .

وقد رويَ أنَّ المأمونَ يحيى بنَ ذي النونِ صاحبَ طُلَيْطِلَـةَ بنى بها قصراً شامخاً تأنَّقَ في بنائِهِ ، وأنفق في سبيلِ ذلك أمـوالاً كثيرةً ، وصَنَعَ فيه بحيرَةً ، وبنى في وسطِها قبةً ، وسيقَ الماءُ إلى رأسِ القبةِ على تدبيرِ أحكمَهُ المهندسون ، فكان الماءُ ينسـابُ من أعلى القبةِ محيطاً بها ، متصلاً بعضُهُ ببعضٍ ، فكانتِ القبـةُ في غِلالةٍ من ماءِ سكب لا يفتُرُ ، فكان المأمونُ بنُ ذي النـون يجلسُ فيها لا يمسُّهُ من الماءِ شيءٌ ، ولو شاء أن يوقِـدَ فيـها الشمعَ لفعلَ .

فبينما هو جالسٌ فيها ذات يومٍ إذ سمع منشداً يقولُ :

أتبـني بنـاءَ الخـالدين وإنّمـا بقاؤكَ فيها لو علمـتَ قليـلُ

لقد كان في ظـلِّ الأراك كفايـةٌ لِمَنْ كلَّ يـومٍ يعتريـه رحيـلُ

قيل : فلم يلبَثْ بعد ذلك إلا يسيراً حتى قضى نحبَهُ .

فسبحان مَنْ له الدوامُ ...!! وسبحان الحي الباقي بعد فناءِ خلقِهِ...!! وسبحانَ القائلِ : (كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ لـه الحكمُ وإليه تُرجَعون) [1] صدق الله العظيم .

أسبابُ معركةِ الزّلاقةِ

لمعركةِ الزلاّقةِ عدةُ أسبابٍ :

أولُهـا :

شعرت الفرنجةُ بضعفِ ملوكِ الطوائفِ ، وتفرقِ كلمتِهم ، وتعدُّدِ إماراتهم ، واستعانةِ بعضِهِم على بعضٍ بالأعداءِ ، وربما تآمَرَ بعضُهم على أخيه ، أو على عمِهِ أو ابنِ عمِهِ ، أو اعتدى عليه وقاتَلَهُ ، فازدادَتْ أطماعُهم بالتوسعِ في أرضِ الأندلسِ ، خاصةً بعد سقوطِ طُلَيْطِلَةَ ، وعجزِ أمرائِها عنِ الدفاعِ عنها ، وعدمِ قدرتِهِم على ردِّ عدوانِ الأذفونشِ ، ومقاومة أخطارِهِم، الأمرُ الذي جعل الفرنجةَ تشتدُّ وطأتُهم على المسلمين ، فأخذوا

---

[1] الآية ٨٨ من سورة القصص .

يغيرون على بلادِهم ، فيقتلون ويحرقون ، ويخربون وينـــهبون ، وينشرون بين أهلِها الخوفَ والذعرَ ، والقلقَ والاضطرابَ دون أي يلقَوا مقاومةً تردعُهم وتردُّهم على أعقابِهم ، لدرجةِ أنهـــم عقدوا مع الأذفونشِ صُلْحاً يؤدون لهم بموجبِهِ قَدْراً معلوماً كلَّ سنة ، يؤدونه على ضعفٍ منهم وقهرٍ . فطمع فيهمُ الأذفونشُ، وأخذوا كثيراً من ثغورِهم ، وقوي بسببِ ذلـــك شـــأنُهم ، وعظُمَ سلطانُهم ، وازدادوا تعنتاً وكبراً وتغطرُساً ، ومضَـــوا يجوسون خلالَ الديارِ ، ويفتحون البلادَ والثغورَ ، والمعـــاقلَ والحصونَ .

قال ابن الأثيرِ : وكان المعتمدُ بنُ عبـــاد أعظـــمَ ملـــوكِ الأندلسِ ، وكان يملكُ أكثرَ البلادِ ، مثل قرطبـــةَ وإشـــبيلية ، وكان مع ذلك يؤدي الضريبة إلى الأذفونش كلَّ سنةٍ .

فلمّا تملّكَ الأذفونشُ طُلَيْطِلَةَ أرسل إليه المعتمدُ الضريبـــةَ على عادتِهِ فلم يقبلْها منه ، وأرسل إليه يهدِّدُهُ ويتوعَّدُهُ بالمسيرِ إلى قرطبةَ ليفتَحَها ، إلا أن يسلمَ إليه جميعَ الحصونِ المنيعةِ [1] ،

---

[1] وكانت تلك الحصون بالجبال .

ويبقى السهلُ للمسلمين ، وكان الرسولُ [1] في جمعٍ كثيرٍ نحو خمسمئةِ فارسٍ ، فأنزلَهُ المعتمد ، وفرَّقَ أصحابَهُ على قُوادِ عسكرِهِ ، ثم أَمَرَ قوادَهُ أن يقتلَ كلٌّ منهم مَن عنده من الكفرة، وأحضَرَ الرسولَ وصَفَعَهُ حتى خرجَتْ عيناه ، وسَلِمَ من الجماعةِ ثلاثةُ نفرٍ ، فعادوا إلى الأذفونشِ وأخبروه الخبرَ ، وكان متوجهاً إلى قرطبةَ ليحاصرَها ، فرجع إلى طُلَيْطِلَةَ ليجمعَ آلاتِ الحصارِ ، ويكثرَ العددَ والعُدَّةَ [2] .

ثانيها :

تأخرُ المعتمدِ بنِ عبادٍ بدفعِ الضريبةِ المترتبةِ عليهِ للأذفونشِ بسببِ اشتغالِهِ بقتالِ ابنِ صمادحٍ صاحبِ المريّةِ ، الأمرُ الذي جعلَ الأذفونشَ ، أو ألفونسو يستشيطُ غضباً ، ويمتلئُ حقداً ، ويزدادُ غطرسةً واستهتاراً بالمعتمدِ بنِ عبادٍ وجميعِ ملوكِ الطوائفِ ، فطلبَ بعضَ الحصونِ زيادةً على الضريبةِ

---

[1] أي رسول الأذفونش إلى المعتمد .

[2] الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ١٤٢ طبعة دار صادر .

ثالثُها :

إمعانُ الأذفونشِ في غيهِ ، وتماديه في طغيانـــهِ وجبروتِــهِ واستهتارِهِ بالمسلمين ومقدساتِهم ، حاول أن يُدْخِلَ امرأتَــهُ إلى جامعِ قرطبةَ لتَلِدَ فيه امتهاناً بالمسلمين ، واستهتاراً بمقدســاتِهم بإشارةٍ من قساوستِهِ ورهبانِهِ لمكانةِ كنيسةٍ كانت في الجــانبِ الغربي من جامعِ قرطبةَ متعللين بطيبِ نسيم ذلــك الموقــع ، وفضيلةِ موضعِ الكنسيةِ عندهم .

وكان السفيرُ في ذلك بين الأذفونشِ والمعتمدِ بـــنِ عبــادٍ رجلاً يهودياً كان وزيراً للأذفونشِ ، فامتنع ابنُ عبادٍ من ذلـك امتناعاً شديداً ، ورفضَهُ رفضاً قاطعاً ، ووقف منــــه موقـــفَ المدافعِ الغيورِ ذي النجدةِ والشهامةِ والمروءةِ الذي يدافعُ عـــن شرفِهِ وحرماتِهِ ومقدساتِ دينِهِ .

فراجعه الوزيرُ اليهوديُّ في ذلك ، فأبى عليـــه المعتمـــدُ ، وأيأسَهُ من ذلك فراجعه اليهوديُّ ، وأغلظ لـــــه في القـــولِ ، وواجهَهُ بكلِّ صفاقةٍ وسوءِ خُلُقٍ ، وخاطَبَهُ بما لم يحتملْهُ ابـــنُ

عبادٍ الذي ردَّ على اليهوديّ ردّاً صارماً جعله يشعرُ باليــــأسِ والقنوطِ ، وفشلِ المهمةِ التي جاء من أجلها .

فما كان من ابنِ عبادٍ إلا أن تناول محبرةً كانت بين يديــه فضرب بها رأسَ اليهودي ، فشقَّهُ وسال منه دماغُهُ ، ثم أمر بــه فصُلِبَ منكوساً على رأسِهِ ، وبقي كذلك حتى مات .

فلما بلغ الأذفونشَ ما صَنَعَهُ ابنُ عبادٍ ثار ثائرُهُ ، وطــــار طائرُهُ ، وأقسم بآلهتِهِ ليغزونَّهُ ببلادِهِ ، ويحاصرنَّهُ في قصــــرِهِ ، ويزيلَنَّ ملكَهُ .

فجرَّدَ جيشين كبيرين جعل على أحدِهما كلباً مسعوراً من مساعيرِ كلابِهِ ، وأمر الجيشَ أن يتوجَّهَ إلى إشبيليةَ ماراً علــــى كورةِ باجةَ من غربِ الأندلسِ ، مغيراً على الثغورِ والتخــومِ ، زارعاً الخوفَ والفزعَ في تلك الجهاتِ .

أما الجيشُ الآخرُ فقد تولّى الأذفونشُ قيادتَهُ بنفسِهِ ، وكان جيشاً كبيراً عرمرماً فسلك به طريقاً غيرَ الطريقِ التي ســـلكها الجيشُ الآخرُ ، وكلاهما عاث في الأرضِ الفســادَ ، وأهلــك

الحرثَ والنسلَ ، وخرَّبَ ودمَّرَ ، وقَتَلَ ونهب ، حتى اجتمعــا لموعِدِهما عند ضفةِ النهرِ الأعظمِ قُبالةَ قصرِ ابنِ عبادٍ .

كتابُ الأذفونشِ إلي ابنِ عبادٍ

وقُبالةَ قصرِ ابنِ عبادٍ ترجَّلَ فرسانُ الأذفونشِ عن جيادِهِم، ونصبوا خيامَــهم ، وبثــوا في الأرضِ جيوشَــهم ، وجعــل الأذفونشُ يرسلُ جنودَهُ ليغيروا هناك ، ويقتلوا وينهبوا .

وفي فترةِ إقامتهِ هناك كتب إلى ابنِ عبادٍ يهدِّدُه ويتوعَّــدُهُ ، ويقولُ له مستصغراً وزارياً : كَثُرَ بطولِ مُقَــامي في مجلســي الذبابُ ، واشتدَّ عليَّ الحرُّ ، فأتحفني من قصرِكَ بمروحــةٍ أروّحُ بها على نفسي ، وأطردُ بها الذبابَ عن وجهي .

فلما تلقّى ابن عباد كتاب الأذفونشِ ، وقرأهُ وعرف ما فيه من صفاقةٍ وغطرسةٍ ، وسوءِ خُلُقٍ ، وقلــةِ أدب ، رَدَّ عليــه قائلاً: قد قرأتُ كتابَكَ ، وفهمتُ خيــلاءَك وإعجــابَكَ ،

وسأنظرُ لك في مراوحَ من الجلودِ اللمطيّةِ تروّحُ منكَ لا تروّحُ عليكَ إنْ شاء اللهُ تعالى . ثم وقّعَ له بخطِ يدِهِ في ظهرِ كتابهِ .

فلمّا وصل الكتابُ إلى الأذفونشِ ، وقُرِئَ عليه ، وفـهم ما فيه ، أطرقَ في الأرضِ إطراقَ مَنْ لم يخطرْ له ذلك ببـال ، و لم يتوقّعْ هذا الجواب ممن يؤدّي له الضريبةَ كلَّ سنةٍ ، وأنـه تمرَّدَ عليه ، وتحرَّرَ من خوفِهِ منه وتحدّاه ، فأدرك الأذفونـشُ أن أمراً غيرَ عادي قد حَدَثَ عند ابنِ عبادٍ ، وأنه سوف يلقى منـه ما لم يتوقّعْهُ ، أو يحسبَ حسابَهُ ، فصحا من طيشِهِ ، وجعـل يعيدُ حساباتِهِ ، وينظرُ في عاقبةِ أمرِهِ فأدرك أنه قد تَسـرَّعَ ، وقادَهُ تهورُهُ وغرورُهُ إلى حتفِهِ ، وفقدان كرامتِهِ ، وزجَّ بنفسـهِ وجيشِهِ إلى الهاويةِ . وتورّط في حرب غير متكافئـةٍ وهـو لا يدري ماذا يخبئُ له القدرُ ، وماذا يعدُّ له المعتمدُ بـنُ عبـاد . وصدق اللهُ العظيمُ إذ يقولُ : (ولا يحيقُ المكـرُ السـيِّءُ إلا بأهلِهِ) [1].

---

[1] الآية ٤٣ من سورة فاطر .

استنجادُ ملوكِ الطوائفِ بيوسفَ بن تاشفين

كان لا بُدَّ للملوكِ الطوائفِ أن يجتمعوا ويتشاوروا بشأن أمرِ الأذفونش وكتابِهِ المتضمّنِ تهديدات ساخرةً ، وأطماعاً ظاهرةً ، ولهجةً مستهجنةً ساخرةً ، للوقوفِ في وجهِهِ ، والتصدي لجيشِهِ الزاحفِ إلى إشبيليةَ ، والمرابطِ حول قصرِ المعتمِدِ بنِ عبادٍ لاحتلالِهِ والقضاءِ على الحكمِ الإسلامي فيه ، ومن ثُمَّ طردُ المسلمين مِنَ الأندلسِ كلِها .

وكان يوسفُ بنُ تاشفين قد لمع نجمُهُ ، واشتُهِرَ أمرُهُ ، وقويَ سلطانُهُ في المغربِ ، وبنى مدينتي مراكشِ وتلمسانَ الجديدةِ ، وقهرَ البربرَ ، وأزال ملكَهم ، وخضعوا لأمرِهِ مع شدتِهِم وقوةِ شكيمتهم .

وكانت الفرنجةُ تخشاهُ ، وترهبُ أمرَهُ ، وتتحاشى الاصطدامَ معه ، إذ كان له اسمٌ كبيرٌ ، وصيتٌ عظيمٌ ، لنفاذِ أمرِهِ ، وسرعةِ تملكِهِ بلادَ المغربِ ، وانتقالِ الأمرِ إليه بسرعةٍ مذهلةٍ ، وسهولةٍ فائقةٍ . مع ما ظهر لأبطالِ الملثمين ، ومشايخِ

صنهاجةَ [1] في المعاركِ من بطولاتِ خارقةٍ ، وشجاعةٍ نادرةٍ ، وضرباتٍ السيوفٍ التي تقدُّ الفرسانَ ، والطعناتِ التي تنظمُ الكُلى .

قال المغربي : فكان له بسببِ ذلك ناموسٌ ورعبٌ في قلوبِ المنتدَبين لقتالِهِ .

وكان ملوكُ الأندلس يفيئون إلى ظلِهِ ، ويحذرونه خوفاً على مُلكِهِم ، مهما عَبَرَ إليهم وعاينَ بلادهم فلما رأوا ما دلَّهم على عبورِهِ إليهم وعلموا ذلك راسَلَ بعضُهم بعضاً يستنجدون آراءهم في أمرِهِ ، وكان مفزعُهم في ذلك إلى المعتمدِ بنِ عباد ، لأنه أشجعُ القومِ ، وأكبرُهم مملكةً ، فوقع اتفاقُهم على مكاتبتِه لما تحققوا أنه يقصدهم يسألونه الإعراضَ عنهم ، وأنهم تحت طاعتِهِ .

فكتب عنهم كاتبٌ من أهلِ الأندلسِ كتاباً ، وهو :

أمّا بعدُ ، فإنك إنْ أعرضتَ عنا نُسبتَ إلى كرمٍ ، ولم تُنسبْ إلى عجزٍ ، وإن أجبْنا داعيَكَ نُسبنا إلى عقلٍ ، ولم

---

[1] صنهاجة : بلدة مشهورة في المغرب .

تُنسبْ إلى وهنٍ ، وقدِ اخترنا لأنفسنا أجملَ نسبتَينا ، فاخْتَر لنفسكَ أكرمَ نسبتيكَ ، فإنك بالمحلِّ الذي لا يجبُ أن تُسبقَ فيه إلى مكْرُمَةٍ ، وإنّ في استبقائِكَ ذوي البيوتِ ما شئتَ من دوامٍ لأمرِكَ وثبوت ، والسلامُ [1].

ثم بعثوا الكتابَ مع وفدٍ رسميٍّ يحملُ التحفَ والهدايا تعبيراً عن تقديرِهم واحترامِهم لهذا القائدِ العظيمِ وتقرباً منه لينالوا عونَهُ ومساعدتَهُ أمام العدوِّ المشترك .

وكان يوسفُ بن تاشفين ذكيّاً ألمعيّاً ذا قلبٍ كبيرٍ ، وعقلٍ راجحٍ ، فلما وصله الكتابُ قال له كاتبُهُ : أيّهُا الملكُ ، هذا الكتابُ من ملوكِ الأندلسِ يعظّمونك فيه ، ويعرّفونك أنهم أهلُ دعوتِكَ ، وتحتَ طاعتِكَ ، ويلتمسون منك أن لا تجعلَهم في منزلةِ الأعادي ، فإنهم مسلمون وذوو بيوتاتٍ ، فلا تغيّرْ بهم وكفى بهم مَنْ وراءَهم من الأعداءِ الكفارِ ، وبلدُهم ضيّق لا يحتمل العساكرَ ، فأعرِضْ عنهم إعراضَكَ عَمَّنْ أطاعَكَ من أهلِ المغربِ .

---

[1] نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٥٤ ــ ٣٥٥ .

فقال يوسفُ بنُ تاشفين لكاتبِهِ : فما ترى أنْتَ ... ؟

فقال : أيّهَا الملكُ ، اعلمْ أنّ تاجَ الملكِ وبهجتَهُ وشــاهدَهُ الذي لا يُرَدُّ بابهُ خليقٌ بما حصل في يدِهِ من الملكِ أن يعفــوَ إذا استُعفيَ ، وأن يهبَ إذا استُوهِبَ ، وكلما وَهَبَ جزيلاً كــان أعظَمَ لقدْرِه ، فإذا عَظُمَ قدرُهُ تأصَّلَ ملكُهُ ، وإذا تأصَّلَ ملكُــهُ تشرَّفَ الناسُ بطاعتِهِ ، وإذا كانت طاعتُهُ شرفاً جاءه الناسُ ولم يتجشَّمِ المشقةَ إليهم ، وكان وارثَ الملكِ من غــيرِ إهــلاكٍ لآخرتِهِ ، واعلمْ أنّ بعضَ الملوكِ الأكابرِ والحكمــاءِ البصــراءِ بطريقِ تحصيل الملكِ قال : مَنْ جادَ ساد ، ومَنْ سادَ قادَ ، ومَنْ قاد مَلَكَ البلادَ .

كتابُ يوسفَ بنِ تاشفينَ
إلي ملوكِ الطّوائفِ

فلما ألقى الكاتبُ هذا الكلامَ إلى يوسفَ بــنِ تاشــفينَ بلُغتِهِ، فهِمَهُ وعلمَ أنهّ صحيحٌ ، فقال للكاتبِ : أجبِ القــومَ ، واكتبْ بما يجبُ في ذلك ، واقرأْ عليَّ كتابَكَ .

فكتب الكاتبُ : بسم الله الرحمن الرحيم ، من يوسفَ بنِ تاشفين ، سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُهُ

تحيّةَ مَنْ سالمكم ، وسلَّمَ عليكم ، وحكَّمَهُ التأييدُ والنصرُ فيما حكَمَ عليكم ، وإنكم ممّا بأيديكم من الملكِ في أوسعِ إباحةٍ ، مخصوصُون منّا بأكرمِ إيثارٍ وسماحةٍ ، فاستديموا وفاءَنا بوفائِكم ، واستصلحوا إخاءَنا بإصلاح إخائِكم ، واللهُ وليُّ التوفيقِ لنا ولكم ، والسلامُ .

فلما فرغَ من كتابهِ قرأَهُ على يوسفَ بنِ تاشفين بلسانِهِ ، فاستحسنَهُ وأمر بإرسالهِ إلى ملوكِ الطوائفِ مع تُحفٍ وهدايا أجملَ وأعظمَ منْ تحفِهِم وهداياهم ، ومن بينها دَرَقٌ لمطيةٌ ، وهي لا توجدُ إلا في بلادهِ ، والدَّرَقُ اللمطيَّةُ ، معدِنٌ منسوبٌ إلى لمطةَ ، وهي بُلَيدةٌ عندَ السُّوسِ الأقْصى ، بينها وبين سجلماسةَ عشرون يوماً .

فلما وصلَ كتابُ ابنِ تاشفينَ إلى ملوكِ الطّوائفِ أحبُّوه وعظَّموه ، وفرحُوا بولايتِهِ ، وتقوَّتْ نفوسُهم به على مقاومةِ

الفرنجِ ، وأزمعوا إن رأَوْا من الأذفونشِ ما يَرِيبُهم أن يجُيزوا إليه يوسفَ بنَ تاشفينَ ، ويكونُوا مِنْ أعوانهِ عليه [1] .

وفشا في الأندلسِ توقيعُ ابنِ عبادٍ ، وردُّه الصريحُ والشجاعُ على الأذفونشِ وما أظهر من العزيمةِ على الاستنجادِ بيوسفَ بنِ تاشفين، والتعاونِ معاً على لقاءِ العدوِّ ، فاستبشرَ الناسُ خيراً ، وفرحوا فرحاً شديداً ، وفُتِحَتْ لهم أبوابُ الخيرِ والأملِ .

مراجعةُ بعضِ ملوك الطوائفِ المعتمدَ بنَ عبادٍ

أما بعضُ ملوكِ الطوائفِ فقد كان لهم رأيٌ آخرُ ، ووجهةُ نظرٍ مختلفةٌ ، فإنهم لما تحقّقوا عزمَ ابنِ عبادٍ بالاستنجادِ بيوسفَ ابنِ تاشفينَ ، وانفرادَهُ برأيِهِ في ذلك ، أُصيبوا بشيءٍ من الإحباطِ ، وخافوا أطماعَ ابنِ تاشفينَ في بلادِهم ، فأخذوا يُراجعون ابنَ عبادٍ في ذلك ، ويلومونه على تصرفِهِ وانفرادِهِ

---

[1] نفح الطيب ، ووفيات الأعيان بتصرف .

بالرأي دونهم ، فمنهم مَنْ كاتبه ، ومنهم مَنْ حضر إليه وكلَّمَهُ مواجهةً ، وحَذَّره عاقبة الأمرِ ، والنتائجَ المترتبةَ عليه، وقالوا له : الملكُ عقيمٌ ، والسيفان لا يجتمعان في غِمْدٍ واحدٍ .

فأجابَهُمْ ابنُ عبادٍ بكلمتِهِ المشهورة والتي سارَتْ بعد ذلك حتى صارَتْ مثلاً : رعيُ الجمالِ خيرٌ من رعي الخنازيرِ ، والمعنى : أن كونَهُ مأكولاً ليوسفَ بنِ تاشفينَ أسيراً يرعى جمالَهُ في الصحراءِ ، خيرٌ من كونِهِ ممزَّقاً للأذفونشِ أسيراً له يرعى خنازيرَهُ في قشتالةَ .

ثم قال لعذّالِهِ ولوّامِهِ : يا قوم ، إني من أمري على حالتين: حالةِ يقينٍ ، وحالةِ شكٍ ، ولا بُدَّ لي مِنْ إحداهما ، أما حالةُ الشكِّ ، فإني إن استندتُ إلى ابنِ تاشفين أو إلى الأذفونشِ ففي الممكنِ أن يفيَ لي ويبقى على وفائِهِ ، ويمكنُ أن لا يفعلَ ، فهذه حالةُ الشكِّ .

وأما حالةُ اليقينِ فإني إن استندتُ إلى ابنِ تاشفينَ فأنا أُرضي الله تعالى ، وإن استندتُ إلى الأذفونشِ أسخطتُ الله تعالى ، فإذا كانَتْ حالةُ الشّك فيها عارضةً ، فلأي شيءٍ أدعُ

ما يرضي الله وآتي ما يسخطُهُ ...؟ فحينئذٍ قصَّرَ أصحابُهُ عـــن لومِهِ .

وفدُ ملوكِ الطوائفِ إلي يوسفَ بنِ تاشفين

وكان يوسفُ بنُ تاشفينَ قبل هذه الأحداثِ قد تـــاقَتْ نفسه إلى العبورِ إلى جزيرةِ الأندلسِ ، فلما عقد العـــزمَ علـــى ذلك أخذ في إنشاءِ السفنِ والمراكبِ ليستخدمَها في العبــورِ إلى الأندلسِ ، فلما علم بذلك ملوكُ الأندلسِ كرهوا دخولَ ابـــن تاشفين جزيرتَهم ، واستعدوا لمنعِهِ من تحقيق ذلك ، ولكـــن صَعُبَتْ عليهم مقاومتُهُ ، وكرهوا أن يكونوا بـــين عدوَّيـــن : الفرنجُ من شمالِهم ، والمسلمون من جنوبِهِم ، فلما اشـــتدَّتْ وطأةُ الفرنجِ عليهم ، وبالغوا في إغارتِهِم ونهبِهِم وسلبِهِم ، وما جرى من استهتارِ الأذفونش بهـــم واســـتصغارِهم ، وفـــرضِ شروطِهِ الآنفةِ الذكرِ عليهمُ مالوا إلى رأي المعتمدِ بـــنِ عبـــادِ وأيّدوهُ ، واتفقوا معه على أن يرسلوا إليـــه بعـــضَ العلمـــاءِ والفقهاءِ ، والوزراءِ والعقلاءِ ، وأصحابَ الرأيِ والعلمِ والحزمِ،

وهم مجمعون على الاستعانةِ بيوسفَ بنِ تاشفين **لكونه مسلماً** وعلى **دينِهم** وعقيدتِهم ، مؤمنون بقولِ ابنِ **عبادٍ : رعيُ** **الجمالِ** خيرٌ من رعي الخنازيرِ .

وانطلق أفرادُ الوفدِ إلى المغربِ لإقناعِ ابنِ تاشفينَ بمساعدتِهم ، وترغيبِهِ في الجهادِ معهم ضدَّ العدوِّ المشتركِ .

فلمّا قدِموا وجدوا الرسلَ والوفودَ تفِدُ إليه من مختلفِ ثغورِ الأندلسِ وبلدانها مستعطفين ، راجين ، مجهشين بالبكاءِ ، ناشدين الله والإسلامَ ، مستنجدين بفقهاءِ مجلسِهِ ، ووزراءِ دولتِهِ ، فيسمعُ إليهم ، ويصغي لقولِهم ، ويحزنُ لأحوالِهم ، وترقُّ نفسُهُ لهم ، وتأخذُهُ الحميّةُ لدينِهِ وعقيدتِهِ ، فينهضُ من مقامِهِ مُبشّراً ، مُطَمئناً واعداً بالاعتمادِ على اللهِ ، والتوكّلِ عليه أن يبذلَ ما بوسعِهِ أن يبذله لمساعدتهم ، وإنقاذِهِم وقتال عدوِهِ وعدوِهم ما استطاعَ إلى ذلك سبيلاً .

روايةٌ أخرى

وذكر ابنُ الأثيرِ فعلَ المعتمدِ بنِ عبادٍ من قتلِ رسلِ الأذفونشِ ، وتخوِّف ملوكِ الأندلسِ من نتائجِ عمل ابنِ عبادٍ ، فذهب منهم رؤساءُ وزعماءُ إلى القاضي عبدِ الله بن محمدِ بنِ أدهمَ وقالوا له : ألا تنظرُ إلى ما فيه المسلمون من الذلّةِ والصغارِ ، وإعطاءِ الجزيةِ بعد أن كانوا يأخذونها ، وقد غلبتِ الفرنجةُ على البلادِ فأخذوها و لم يبقَ إلا القليلُ ، وإن طال هذا الأمر عادَتْ نصرانيةً كما كانَتْ أولاً وقد رأينا رأياً نعرضُهُ عليكَ ، قال : وما هو ...؟

قالوا : نكتب إلى عربِ إفريقيةَ ، ونبذلُ لهم إذا وصلوا إلينا شطرَ أموالِنا ، ونخرج معهم مجاهدين في سبيل الله .

فقال لهم : إنا نخشى إنْ وصلوا إلينا أن يخرِّبوا بلادَنا كما فعلوا بأفريقيةَ ، ويتركوا الإفرنجَ ويبدؤوا بنا ، والمرابطون أصلحُ منهم ، وأقربُ إلينا .

فقالوا : فكاتبْ أميرَ المسلمين [١] ، واسألْهُ العبورَ إلينا أو إعانتَنا بما تيسَّرَ من الجندِ [٢] .

فبينما هم كذلك يتفاوضون ، ويدرسون وضعَ البلادِ وكيفيةَ حمايتِها ، وسبلَ الدفاعِ عنها إذ قَدِمَ عليهمُ المعتمدُ بنُ عبادٍ ، فعرض عليه القاضي ابنُ أدهمَ ما كانوا بصددِهِ من التشاورِ في مصلحةِ البلادِ وطلبِهِم من يوسفَ بنِ تاشفين أن يعبرَ إليهم لمساعدتِهِم ، وكان ابنُ عبادٍ قد عقد العزمَ على ذلك من قبلُ .

فقال له المعتمدُ بنُ عبادٍ : أنتَ رسولي إليه في ذلك .

فامتَنَع القاضي في بادئِ الأمرِ ، ولكنه لم يلبثْ أن وافق بعد إصرارِ ابنِ عبادٍ وسار إلى أميرِ المسلمين يوسفَ بنِ تاشفين ، فأبلغَهُ الرسالةَ ، وأعَلمَهُ بما فيه المسلمون من الخوفِ والقلقِ من مهاجمةِ العدو، وأن الملوكَ والأمراءَ وجميعَ المسلمين في الأندلسِ يستنهضونه إلى الجهادِ في سبيل اللهِ تعالى ، ويمتنعون

---

[١] هو يوسف بن تاشفين .

[٢] الكامل في التاريخ لابن الأثير .

به من عدوِّهم ، ويسألونه العبورَ إليهم ، فالأمرُ في غايةِ الخطورةِ ، والوقتُ ضيقٌ ، والظروفُ قاسيةٌ وحرجةٌ لا تحتملُ التأخيرَ والتسويفَ .

مراسلةٌ بين الأذفونشِ ويوسفَ بنِ تاشفين

لم يكدِ القائدُ المؤمنُ يوسفُ بنُ تاشفين يسمعُ طلقاتِ الاستغاثةِ من مسلمي الأندلسِ تستنهضُهُ ، وتستثيرُهُ وتحركُ مشاعرَهُ ، وتلهبُ أحاسيسَهُ حتى أمر بتجهيزِ الجيشِ ، والاستعدادِ إلى عبورِ جزيرةِ الأندلسِ على الفورِ ، فأقبلَتْ إليه الجيوشَ من كلِ مكانٍ ، وتزاحمَتْ أمامَهُ يتلو بعضُهم بعضاً حتى تكامل عنده جيشٌ قويٌ وكبيرٌ ، ثم انطلق يقودُهُ حتى عبر به البحرَ .

وكان المعتمدُ بنُ عبادٍ أيضاً قد جهَّزَ جيشاً كبيراً التقى بجيشِ ابن تاشفين بإشبيليةٍ .

وخرج من قرطبةَ جيشٌ آخرُ ، وجاء المتطوعون للقتالِ من سائرِ بلادِ الأندلس ، اجتمعوا جميعاً تحت قيادة يوسفَ بنِ تاشفين ، والمعتمدِ بنِ عبادٍ استعداداً لخوضِ معركةِ الدفاع عن الشرفِ والبلادِ والعرضِ والدينِ .

ووصلتِ الأنباءُ إلى الأذفونشِ الذي غضب من ذلك غضباً شديداً ، فجمع على الفورِ جيشَهُ ، وحشَدَ جنودَهُ ، وسار بهم من طُلَيْطِلَةَ، وكتبَ إلى أميرِ المسلمينَ يوسفَ بنِ تاشفينَ كتاباً أغلَظَ له في القولِ ، وذكر فيه ما معه من الجنودِ والفرسانِ ، والعَدَد والعُدَّة ، وبالغ له في ذلك ، فلما وصله وعرف ما فيه استصغَرَهُ واستهجَنَ رأيَهُ ، وعلم طيشَهُ وتهوُّرَهُ وأمَرَ كاتبَه أبا بكرِ بنَ القصيرةِ أن يجيبَهُ ، وكان كاتباً مفلقاً ، فكتبَ وأجادَ ، فلما قرأه على ابنِ تاشفين قال له : هذا كتابٌ طويلٌ ، أحْضِرْ كتابَ الأذفونشِ ، واكتب في ظهرِهِ : (الذي يكونُ ستراه) ثم أرسلَهُ إليه ، فلما قرأهُ الأذفونشُ وعلم ما فيه ، ارتاع له وخشيَ منه ، وأدركَ أنه سيواجهُ قائداً عنيداً لا طاقةَ له به .

دخولُ يوسفَ بن تاشفين
جزيرة الأندلس

وكان يوسفُ بن تاشفين حين عبرَ البحرَ ونزل جزيـــرةَ الأندلسِ ، أمَرَ بعبورِ الجمالِ ، وكان له في ذلك مأربٌ ذكيٌ ، ورأيٌ مصيبٌ ، فاصطحب معه منها ما مَلأَ الجزيرةَ ، فـــارتفع رُغاؤها إلى عنانِ السماءِ ، ولم يكنْ أهلُ الجزيـــرةِ يعرفـــون الجمالَ ، ولم يسبقْ لهم أن رأَوها ، وكذلك خيلُهُم التي خافتِ الإبلَ ، وجَمَحَت من رؤيتها ، وسماعِ رُغائِها ، فهربَتْ منها ، وأصيبَ الإفرنجُ بخيبةِ أملٍ كبيرة ، وأدركوا أنَّ حربَهم خاسرةٌ لا محالةَ ، في حين تعزَّزَ موقفُ المسلمين ، وفرحوا بذلك فرحـاً شديداً ، وفُتِحَتْ أمامهم أبوابُ الأملِ بالنصرِ والظفرِ ، وجعـل السلطانُ يوسفُ بنُ تاشفين ينظرُ إلى الجيشِ العرمرمِ الكبـــيرِ الذي قَدِمَ إليهِ قبيلاً بعد قبيلٍ ، وأميراً بعد أميرٍ ، وفرقةً بعـــد فرقةٍ ، فجعل يحمَدُ اللهَ تعالى ويشكُرُه على هذا العزِ والسـلطانِ الذي أيَّدَهُ به ، ودعَّمَ موقفَهُ ، وجعل منه قائداً ينالُ محبة ملـوكِ الأندلسِ وثقتَهم وولاءَهم ، فكتب كتاباً يعرضُ فيه للأذفونـشِ

الدخولَ في الإسلامِ ، أوِ الجزيةَ أو الحربَ ، انطلاقاً من تعاليمِ الإسلامِ الساميةِ ، وآدابِ الجهادِ العاليةِ يقولُ فيه : بلغنا يا أذفونشُ أنكَ دعوتَ إلى الاجتماعِ بنا ، وتمنّيتَ أن تكونَ لك سفنٌ تعبرُ بها البحرَ إلينا ، فقد عبرنا إليكَ ، وقد جمع اللهُ تعالى في هذه الساحةِ بيننا وبينَكَ ، وسنرى عاقبةَ دعائِكَ . (وما دعاءُ الكافرين إلا في ضلالٍ)[1] .

استعدادُ الفريقين

لما بلغ كتابُ السلطانِ يوسفَ بنِ تاشفين الأذفونشَ يدعوه إلى الإسلام امتلأ غيظاً ، وعتا وطغى ، وجاش بحرُ غيظِهِ ، وزاد في طغيانِهِ ، وأقسم أن لا يبرحَ موضعَهُ حتى يلقاه ، ويردَّهُ من حيثُ أتى ، أو يقتلَهُ ويقضيَ على جيشِهِ ، وقامتِ الأساقفةُ والرهبانُ فرفعوا صلبانَهم، ونشروا أناجيلَهم ، وبايعوه على الموتِ .

---

[1] الآية ٥٠ من سورة غافر .

وقام السلطانُ يوسفُ بنُ تاشفين والمعتمدُ بنُ عبادٍ يعظان جيشَهما ، ويحثّانِهِ على الجهادِ في سبيلِ الله

وقام العلماءُ والفقهاءُ والصالحون مقامَ الوعظِ ، وحضّوا الناس على الصبرِ والثباتِ ، وحذروهم من الهزيمةِ والفرارِ .

وأقبلَتْ طلائعُ الاستطلاعِ تخبرُ أن العدوَّ مقبلٌ عليهم في صبيحةِ اليومِ التالي ، وهو يومُ الأربعاءِ ، فأصبح المسلمون وقد أخذوا مواقعَهم، واستعدوا لمعركةِ المصيرِ والشرفِ .

وفي صبيحةِ يومِ الخميسِ لجأ الأذفونش إلى استعمالِ المكرِ والخديعةِ ، فكتب إلى ابنِ عبادٍ يقولُ : غداً يومُ الجمعةِ ، وهو عيدُكم، والأحدُ عيدُنا ، فلْيكن لقاؤنا بينهما ، وهو يومُ السبتِ .

فعرضَ ابنُ عبادٍ الكتابَ على ابنِ تاشفين ، وقال له : إنها حيلةٌ من الأذفونشِ ومكرٌ منه وخديعةٌ ، وإنه يقصدُ بذلك أن يقومَ بغدرِنا يومَ الجمعةِ ، فلْيَكُن الناسُ على استعدادٍ له يومَ الجمعةِ النهارَ كلَّهُ لمواجهتِهِ ، ومقاومتِهِ وردِّ عدوانِهِ .

رؤيا صالحة

وبات الفريقان تلك الليلةَ على أُهْبةٍ كاملةٍ واحتراسٍ شديدٍ وجواسيسُ كل فريقٍ تتردَّد بين الجميعِ ، وتسترقُ السـمعَ ، وتتلقفُ الأخبارَ .

وبعد مضي جزءٍ من الليل انتبه أحدُ جندِ المسلمين وكـان عابداً زاهداً تقيّاً ، يقالُ له : أبو العباسِ أحمدُ ابنُ رُقيلةَ القرطبيُّ الفقيهُ الناسكُ المجاهدُ في سبيلِ اللهِ ، وكان قد رأى رؤيا صالحةً انتبهَ على أثرِها ، وفرح بها فرحاً شديداً ، فقصّها على أصحابهِ وقال لهم : إنه رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فبشره بـالنصرِ والفتحِ والموتِ على الشهادةِ في صبيحةِ تلك الليلةِ ، فتـأهَّبَ للقاءِ ربِهِ عز وجل ، ثم دعا وتضرَّعَ وتطيبَ استعداداً للمـوتِ في ساحةِ الوغى وهو يبيعُ نفسَهُ ، ويبذلُ دمَهُ في سبيلِ ربهِ عـز وجل .

انتهى خبرُ هذه الرؤيا الصادقةِ إلى ابن عباد ، فبعـث إلى السلطانِ يوسفَ يخبِرُهُ بها أملاً بالنصرِ ، وتفاؤلاً بالفتحِ والظفرِ.

رؤيا الأذفونش

اجتمع للأذفونشِ عددٌ كبيرٌ من الجندِ والفرسانِ ، فأصابه الطيشُ والغرورُ وأخذتْهُ العزّةُ بالأثمِ ، فقال وقد نظر إلى ما اجتمع إليه من عددٍ وعُدةٍ : بهؤلاءِ أقاتلُ الجنَ والأنسَ وملائكةَ السماءِ فالمقلّل لهم يقولُ : المختارون أربعونَ ألفَ دارعٍ ، ولكلِ واحدٍ أتباعٌ ، وأما النصارى فيعجبون ممن يزعمُ ذلك ، ويرون أنهم أكثرُ من ذلك كلِهِ .

واتفق الجميعُ على أن عدد المسلمين أقلُ من ذلك بكثيرٍ .

وعلى أثرِ ذلك رأى الأذفونشُ في نومِهِ كأنه راكبُ فيلٍ يضربُ نقيرةَ طبلٍ ، فلما استيقظ هالته تلك الرؤيا ، وأضحى خائفاً منها وقلقاً ، فجمع القساوسةَ والرهبانَ ليعبّروها له ، فلم يجدْ عند أحد منهم جواباً، فاختار رجلاً من اليهودِ فأرسلَهُ ليأتيَهُ بتأويلها من المسلمين ، فأرشَدَهُ بعضُهم إلى عالمٍ بتعبيرِ الرؤيا ، فقصَّها عليه ونسبها إلى نفسه ، فقال له المعبِّر : كذبتَ ، ما هذه الرؤيا لك ، ولا أعبرها لكَ ، إلا إن صدقتَني، وأخبرتَني مَنْ هو صاحبُ الرؤيا .

فقال له : وتكتمُ عليَّ ... ولا تخبر عني أحداً ...؟

قال : أكتمُ عليكَ .

فقال : الرؤيا للأذفونشِ .

فقال المعبِّر : صدقتَ ، ولا يراها غيرُهُ ، والرؤيا تـــدلُ على بلاءٍ عظيمٍ ، ومصيبةٍ فادحةٍ في عسكرِهِ ، وتفسيرُها قولـه تعالى : (ألم ترَ كيف فعل ربُك بأصحابِ الفيلِ) [1].

وأما ضربةُ النقيرةِ ، فتأويلُها : (فإذا نُقِرَ في الناقورِ فذلك يومئذٍ يومٌ عسيرٌ) [2] .

فانصرف اليهوديُّ وذكر للأذفونشِ ما وافق خـــاطرَهُ ، فصدَّقَهُ واطمأنَّ لكلامِهِ ، وازدادَ غطرسةً وبطـــراً ، ومكـــراً وغروراً ، (ولا يحيق المكرُ السيئُ إلا بأهلِهِ) [3]. ونسيَ المغـرور أن النصرَ بيدِ اللهِ ، لا بالعددِ ولا بالعدةِ ، فـــ(كم من فئةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ واللهُ مع الصابرين) [4] .

---

[1] الآية ١ من سورة الفيل .

[2] الآية ٨ ـــ ٩ من سورة المدثر .

[3] الآية ٤٣ من سورة فاطر .

[4] الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .

اللقـــاء

وفي صبيحةِ يوم الأربعاءِ الثالثَ عشرَ من شهرِ رجبٍ سنةَ تسعٍ وسبعين وأربعمائةٍ .

وقـــيل : في شـــهر رمضانَ في العشرِ الأواخرِ من السنةِ المذكورةِ .

وقـــال البياســـي : كان ذلك في المحرمِ سنةَ تسعٍ وسبعين وأربعمائةٍ.

ففـــي صبيحةِ أحدِ الأيامِ المذكورةِ أقبلَتْ جنودُ الأذفونشِ كالسيلِ الجارفِ يتبعُ بعضُها بعضاً حتى اجتمعَت بمكانٍ واسعٍ مـــن الأرضِ يســـمى الزّلاقة بالقرب من بَطَلَيْوسَ [1] ، وبين الموضعين أربعةُ فراسخَ .

واجتمعَت جنودُ المسلمين بالزلاقة أيضاً بقيادةِ المعتمد بنِ عبادٍ ، ثم وافاهم يوسفُ بنُ تاشفينَ بجنودِهِ ونزل على أقلَّ من فرســـخٍ مـــن جنود العدوِ ، فاقترح المعتمدُ بنُ عبادٍ على ابنِ تاشـــفينَ أن يتصدى هو أولاً للعدو ، فإن لم يستطعِ الصمودَ

---

[1] بَطَلْيوس : مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر آنه غربي قرطبة .

أمامَهم ، وهرب بجنودِه أن يميلَ يوسفُ بنُ تاشفينَ عليهم ، ثم ترتدُّ جنودُ ابنِ عباد ، فيصبحُ العدوُّ بينهما ، فيكونُ العدوُّ كما يقـــالُ : بين فكّي كماشةٍ ، فينْـــزِلُ به جنودُ المسلمين ضرباً وتقتيلاً حتى يطحنوه ويقضوا عليه .

وحينَ أقبل الليل بظلامِه جاء فارسان من طلائعِ المعتمدِ بنِ عبادٍ يخبرانه أنهما أشرفا على معسكرِ الأذفونش فسمعا ضوضاءَ الجـــيوشِ ، واضـــطرابَ الأسلحةِ ، ثم جاءَتِ الجواسيسُ من داخلِ معسكرِ العدوِ تقولُ : استرقنا السمعَ فسمعنا الأذفونشَ يقـــولُ لأصحابه : إن ابنَ عبادٍ مسعرُ هذه الحروبِ ، وهؤلاء الصـــحراويون [1] وإن كـــانوا أهلَ حفاظٍ وذوي بصائرَ في الحـــروبِ فهم غيرُ عارفين بهذه البلادِ ، وإنما قادهُمُ ابنُ عباد، فاقصِدوهُ واهجموا عليه واصبروا فإن انكشف لكم هان عليكمُ الصحراويون بعده ، ولا أرى ابنَ عبادٍ يصبرُ لكم إنْ صدقتموه الحملةَ.

فـــلما سمـــع ابنُ عبادٍ هذا الكلامَ بعث كاتبَهُ أبا بكرِ بنَ القصـــيرةِ إلى السلطانِ يوسفَ يخبرُهُ بغدرِ الأذفونشِ وتحريضِ جيشِهِ على الهجومِ والمباغتةِ .

---

[1] يقصد بالصحراويين يوسف بن تاشفين وجيشه .

فمضـــى ابنُ القصيرةِ إلى السلطانِ يوسفَ يخبرُهُ بذلك ، ويستحثُهُ النصرَ والمساعدةَ .

فقال له : قلْ له إني سأقرُبُ منه إن شاء اللهُ تعالى ، وأمر يوسفُ بعضَ قوادهِ أن يمضيَ بكتيبةٍ فيدخلَ بها معسكرَ العدوِ فيُضرمَها ناراً ما دام الأذفونشُ مشتغلاً مع ابنِ عباد .

فـــرجع ابنُ القصيرةِ فلم يصِلْ إلى ابنِ عبادٍ إلّا وقد غشيَتْهُ جنودُ العدوِ ، ففوجئَ ابنُ عبادٍ ، وصُدِمَ بصورةٍ عنيفة قطَعَتْ آمالَـــهُ ، وبدَّدَت أحلامَهُ وجعلتْهُ يصابُ باليأسِ والقنوطِ من وصولِ النجدةِ من السلطانِ يوسفَ .

الغدر

كـــان موعدُ المناجزةِ بين الفريقين يوم السبتِ ، ولكنَّ الأذفونشَ غَدَرَ ومكر ، ففي سَحَرِ يومِ الجمعةِ مالَ الأذفونشُ بجموعِـــهِ على معسكر ابنِ عبادٍ ، وأحاط به من كلِ جهةٍ ، فأوقدَتْ نارُ الحربِ ، واشتدَّ أوارُها ، وحميَ وطيسُها ، بينما الـــناسُ في طمأنيـــنةٍ من أمرِهم إذ فوجئوا بسيوفِ العدوِ على

رقـــابِهِم فاضطربوا ، وساء ظنُّهم وصُعِقوا من هولِ المفاجأةِ ، وتدافَعَـــتْ قلوبُهـــم ، ووقع الشرُّ ، ورجفتِ الأرضُ، ودبَّتِ الفوضى ، وكَثُرَ القتلُ بين صفوفِ المسلمين ، وصبر ابنُ عبادٍ صـــبراً لم يُعْهَد مثلُهُ لأحدٍ ، واستبطأ مجيءَ يوسفَ بنِ تاشفين وهو يلاحظُ طريقَهُ ، وينظرُ بترقبٍ وتلهفٍ قدومَهُ ، حتى اشتدَّ عليه وعلى جنودِهِ البلاءُ ، وعضّتْهُم الحربُ ، وقامَتْ بهم على ساقٍ ، فانكشف بعضُ قادةِ ابنِ عبادٍ ، وفرَّ الجنودُ والفرسانُ ، وغـــادروا أرضَ المعركةِ ، وأخلَوا أماكنَهم ، وصُرِعَ ابنُ عبادٍ وأثخنـــتْهُ الجـــراحُ ، وأصابتْهُ ضربةٌ شديدةٌ فَلَقَتْ هامَتَهُ حتى وَصَـــلَتْ إلى صَدغهِ [1] وجُرِحَت يدُهُ اليمنى ، وطُعِنَ في أحدِ جانبـــيهِ ، وعُقِرَتْ تحتهُ ثلاثةُ أفراسٍ كلما هلك واحدٌ قُدِّمَ له آخـــرُ ، وبيـــنما هو في حالتِهِ النفسيةِ المترديةِ يقاسي حياضَ المـــوتِ، يضربُ بسيفهِ يميناً وشمالاً وهو يائسٌ من الحياةِ تذكر ابناً له صغيراً كان مُغْرَماً به تركه في إشبيليةَ مريضاً ، وكان قد كناه أبا هاشمٍ، فأنشد قائلاً :

---

[1] الصدغ : ما بين لحظ العين إلى أصل الأذن ، والجمع أصداغ .

أبـا هاشمٍ هشمتني الشِّـفار [1]		فللـــهِ صبري لِـــذاكَ الأوارْ [2]

ذكرتُ شُخَيصَك تحت العجاج		فلـم يثْني ذكــرُهُ للفِـرار

فلم يكدِ ابنُ عبادٍ يفرغُ من كلامِهِ حتى جاءه الفرجُ بعد الصبرِ، والنصرُ بعد الهزيمةِ ، والأملُ بعد اليأسِ ، فأبصر جنودَ ابـنِ تاشـفينَ مقبلةً إليه تردُّ عنه جموعَ المعتدين ، وتدفعُ عنه الـبأسَ والألَمَ ، فكان أولَ مَنْ وافاه داودُ بنُ عائشةَ ، وكان بطلاً شجاعاً ، وشهماً مقداماً . وبمجيئِهِ نُفِّسَ عنِ ابنِ عبادٍ ، وعاد إليه الأمل متجدداً .

هزيمةُ الأذفونشِ

كان الأذفونشُ وجنودُهُ يعتقدون أن السلطانَ ابنَ تاشَفينَ في جملةِ المنهزمين ، فازدادوا غطرسةً وغروراً ، وأخذتْهُمُ العزةُ بـالإثمِ ، ونشروا أناجيلَهم ، ورفعوا صلبانَهم ، وأقسموا على استئصالِ المسلمينَ وإبادةِ خضرائِهِم ، ونسُوا أن العبرةَ بالخاتمة،

---

[1] الشفار : جمع شفر ، والشفرة : المدية ، وهي السكين العريض والجمع شفار وشفرات مثل سجدة وسجدات.

[2] الأوار : شدة حر الشمس ولفح النار ووهجها والعطش . وقيل الأوار : الدخان واللهب .

وأن النصرَ بيدِ الله ، وأن العاقبةَ للمتقين ، وأنّ ما لمسوه ليس نصراً حقيقياً ، إنما هو استدراجٌ ، وبدايةٌ لهزيمةٍ بشعةٍ ومنكرةٍ ســوف تحيقُ بهم ، وتنــزلُ بساحتِهم فلا تبقي منهم أحداً ، وسيعلمُ الذين ظلموا أيَّ منقَلبٍ ينقلبون .

في هــذه الــلحظاتِ الرهيبةِ ، والظروفِ الحاسمةِ أقبل السلطانُ ابنُ تاشفينَ يقودُ جنودَهُ ، ويقتحمُ بهم جيشَ العدو ، وضــربتِ الطــبولُ ، واهتزتِ الأرضُ ، وتجاوبتِ الآفاقُ ، وارتفــع صــهيلُ الخــيولِ ، وعلا رُغاءُ الإبلِ حتى بلغ عنانَ الســماء، فــلما سمعتْ خيلُ الفرنجة هذه الأصواتَ أحجَمَتْ عــنها، وغادرَتْ أماكنَها ، وانطلقَتْ تعدو بفرسانِها ، ووقع الخوفُ في قلوبِ الفرنجة الذين غادروا أماكنَهم ولاذوا بالفرارِ، فتبعهم ابنُ تاشفين يقفو أثَرَهم بجيشٍ فيه حماةُ الثغورِ ، وزعماءُ الأندلسِ ، وفرسانُ المسلمين ، وجعل ابنَه عبدَ الله على مقدمةِ الجيشِ ، وسار وهو ينشدُ لنفسهِ متفائلاً بالنصرِ قائلاً :

لا بــدّ مــن فــرج قريـــــب يــأتيكَ بــالعجب العجيـــــب

غـــزوٌ عليـــكَ مبـــارَكٌ سـيعودُ بـــالفتح القريـــب

لله ســــــعدُكَ إنــــــه نكــسٌ علــى ديــن الصليـــب

لا بُــدَّ مــن يـــوم يكـــونُ لــه أخــاً يــومُ القليـــــب[1]

وانطلق السلطانُ يوسفُ يفتكُ بفلولِ المنهزمين وطبولُــهُ تدُقّ مؤذنةً بنهايةِ المعتدين وأصواتُها تصعدُ إلى الجوِ ، وتــرددُ أصداؤها في الأفقِ . فلما أبصرَهُ الأذفونــشُ دُهِــشَ وصُــدِمَ بصورةٍ عنيفةٍ ، وأيقن بالفشلِ الذريعِ ، والهزيمـــةِ المنكــرةِ ، وأدركَ أن السلطانَ يوسفَ فاجأه بخطةٍ ذكيةٍ وناجحةٍ ، وقضى على غدرِهِ ومكرِهِ ، وجعله يصابُ بخيبةِ أملٍ محققةٍ جعلَــتْ أحلامَهُ تذوبُ وتتلاشى وتصبحُ هباءً منثوراً .

ولكنه مع ذلك قام بمحاولةٍ يائسةٍ معتقداً أنه ربما يســتطيعُ أن يصدَّ حملةَ ابنِ تاشفين ويعيدَ اعتبارَه ، ويحفظَ مــاءَ وجهــهِ ، ويتمسكَ بكرامتِهِ أمام جنودِهِ ، فوجَّهَ حملتَه ، ونادى جنودَهُ ، وقصد بهم جيشَ ابنِ تاشفين الذي كان متيقظاً وحاذراً مــــن

---

[1] يريد بيوم القليب : يوم معركة بدر الكبرى .

مكرِهِ وغدرِهِ ، فبادره وصدمه بجمعِهِ ، ورده وجيشَهُ على أعقابِهِم خاسرين متوَّجين بالخزي والعارِ ، متحملين نتيجةَ الغدرِ والخيانةِ .

النصرُ

عادَ الأملُ مجدداً إلى ابنِ عبادٍ حين أبصر السلطانَ ابنَ تاشفين يصدُّ جموعَ المعتدين ، ويبعدُهم عن أماكنِهِم ، ويذيقهم مرارةَ الهزيمةِ ، فنسي مُصابَهُ ، ولم يشعرْ بآلامِهِ ، واستبشر بالنصرِ ، واستنشق ريحَ الظفرِ ، واستعاد نشاطَهُ وحيويتَهُ ، وانطلق بكل قوةٍ وأملٍ فانضمَّ إلى جموعِ المقاتلين المؤمنين ، فصدقوا الحملةَ على المعتدين ، وشرّدوهم في الأرضِ ، ومزّقوهم شرَّ ممزقٍ ، وانطلقوا يلاحقونهم بكلِ جهةٍ ، فتزلزلت الأرضُ بحوافرِ خيولِهِم ، وعلاهُمُ النّقعُ حتى أظلمَ النهارُ بالعجاجِ والغبارِ ، وخاضتِ الخيل في الدماءِ واهتزتِ الأرضُ ، وتجاوبتِ الجبالُ والآفاقُ تُرددُ أصداءَ تكبيرِ وتهليلِ المسلمين الذي أوقع الرعبَ والخوفَ في قلوبِ الكافرين ، فأنزل اللهُ نصرَهُ على عبادِهِ ، وتراجعَ المنهزمون من أصحابِ

ابنِ عبادٍ حين علموا بالتحامِ الفريقين ، وصدق ثبات المؤمنين ، ونزولِ النصرِ من السماءِ ، وأبصروا بأعينِهِم هزيمةَ العدوِ وتفرقَهم في الأرضِ لا يلوون على شيءٍ ، والذي أثلج صدورَهم ، ورفع من معنوياتِهِم مرورُ الأذفونشِ أمامهم هارباً منهزماً يطلبُ النجاةَ وقد طُعِنَ طعنةَ شديدةً أفقدَتْهُ قوتَهُ ، وجعلَتْهُ عاجزاً عن حملِ السلاحِ ، قوياً في الهزيمةِ ، شديداً في الهربِ ، يَنشُدُ الرحمةَ ، ويرجو العفوَ والشفقةَ .

وكيف يستجابُ له ، وكيف يُسمَعُ له ، وكيف ينالُ العفوَ والشفقة ، أو تصيبُهُ الرحمةُ ... !!... ؟؟

كيف يرجو هذا وذاك وهو من أكابرِ مجرمي الحروبِ الّذين يستحقون المحاكمةَ والإعدامَ ، وعدمَ العفوِ والرحمةِ ...؟؟

لقد خان العهدَ والميثاقَ ، فغدر ومكر ، وتآمر على المسلمين ، وعمل على حربِهِم وإبادتِهِم ، ولم يلتزمْ بأدبِ القتالِ ، ولم يحافظْ على العهدِ والذمةِ . فباغَتَ المسلمين وهم آمنون ، وانقضَّ عليهم في معسكرهم ، وأعمل فيهمُ السيفَ وأنزل فيهمُ القتلَ معتقداً أنه ناجٍ من العقابِ لأنه بغدرِهِ ومكرِهِ

قد تفوقَ على خصمِهِ ، وانتصر عليه . وفيه وفي أمثالِــهِ مــن الكفرةِ والغادرين يقولُ الله تبارك وتعالى : (إنَّ شرَّ الـــدوابِّ عند الله الذينَ كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدَتْ منــهم ثم ينقضون عهدَهم في كلِ مرةٍ وهم لا يتقون . فإمّا تَثقَفَنَّــهُمْ في الحربِ فشرِّدْ بهم مَنْ خَلْفَهم لعلّهم يذّكّرون . وإمّا تخافَنَّ مِــنْ قومٍ خيانةً فانبِذْ إليهم على سواءٍ إنَّ الله لا يحبُ الخـائنين . ولا يحسَبَنَّ الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجِزون .) [1] .

ثم يأمرُ الله عز وجل المؤمنين أن يكونوا على اســـتعدادٍ كاملٍ ، وحذرٍ شديدٍ من هؤلاء وأمثالِهم ، وأن يعدِّوا العـدةَ ، ويجمعوا القوةَ للتصدي لغدرِهم وإبطالِ مكرِهِم ، والله معـــهم وهو ناصرُهم ومؤيدهم ما داموا مؤمنين ملتزمين أوامرَ ربـهِم ، مجتنبين نواهيَهُ ، عاملين على طاعتِهِ والقتالِ في ســـبيلِهِ بكـــلِ صدقِ نيةٍ ، وإخلاصِ عملٍ ، فهو الكفيلُ بنصرِهم ، حيــثُ يقولُ في كتابِهِ العزيزِ : (وأعدِّوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومــن رباطِ الخيلِ ترهبون به عدوَّ اللهِ وعدوَّكم وآخرين من دونِـــهم

---

[1] الآيات ٥٥ ــ ٥٩ من سورة الأنفال .

لا تعلمونهمُ اللهُ يعلمُهم وما تنفقوا من شيءٍ في سبيلِ اللهِ يوفَّ إليكم وأنتم لا تُظلَمون .) [1]

(ولينصُرَنَّ اللهُ مَنْ ينصُرُهُ إنَّ اللهَ لقويٌّ عزيزٌ.) [2]

(ولقد سبقَتْ كلمتُنا لعبادنــا المرسَـلين . إنهــم لهــمُ المنصورون . وإنَّ جندَنا لهمُ الغالبون .) [3]

(يا أيها الذين آمنوا إنْ تنصروا اللهَ ينصُرْكــم ويثبــتْ أقدامكم . والذينَ كفروا فتعساً لهم وأضلَّ أعمالَهم .) [4]

فمتى توافَرَتْ هذه الشروطُ في المسلمين ، مــع الأخــذِ التامِّ والكاملِ بأسبابِ النّصْرِ ، نصرَهُم اللهُ ، ومكّنَ لهــم في الأرضِ ، وأيّدَهم بجنودٍ لم ترَها الأعينُ ، وكان معهم يحميهم ، ويمنعُهم ، ويؤيدُهم بنصرِهِ ، ويدفعُ عنهم كلَّ شرٍ وبلاءٍ ، وهو

---

[1] الآية ٦٠ من سورة الأنفال .

[2] الآية ٤٠ من سورة الحج .

[3] الآيات ١٧١ ـــ ١٧٣ من سورة الصافات .

[4] الآيتان ٧ ـــ ٨ من سورة محمد .

القائلُ : (وكان حقّاً علينا نصرُ المؤمنـــين .) [1] صـــدق الله العظيم .

استئنافُ القتالِ

هربَ الأذفونشُ أمامَ السّلطانِ ابنِ تاشفينَ بعـــد أن مُـــنيَ بهزيمةٍ كبيرةٍ شلّتْ قدرتَهُ القتاليّةَ ، وجعلَتْ جيشَهُ أشلاءً متفرقةً في شَرْق البلادِ وغربِها ، وكان الأذفونشُ وجنودُهُ يعتقدونَ في بدءِ المعركةِ أنَّ ابنَ تاشفينَ كان في جملةِ المنهزمينَ ، ثم سـرعانَ ما خابَ فألُهُم ، وتبدَّدَتْ أحلامُـــهُم ، وأصيبـــوا بالدهشـــةِ والاستغرابِ وخيبةِ الأملِ حين علمُوا أنّه هو الذي نزل عليـــهم كالصّاعقةِ فبدَّدهم ، وشتَّتَ شملَهم ، وفرَّق جمعَهم ، ومزَّقَـــهم شرَّ ممزَّقٍ ، لذلك جمعُوا جموعَهم ، وتشـــاورُوا في أمرِهِـــم ، وقرّروا أن ينتقمُوا لأنفسِهم ، ويثأرُوا لهزيمتِـــهِم ، ويقومـــوا بهجومٍ مباغتٍ على معسكرِ المسلمين ، ويُشعلوها عليهم حرباً،

[1] الآية ٤٧ من سورة الروم .

ويُوقدُوها عليهم ناراً تحرقُ الأخضرَ واليابسَ ، ولا تُبقـــي ولا تذرُ منهم أحداً .

فوضعُوا خطةً رهيبةً للغدرِ بالمسلمين والإيقاعِ بهم ، ولكنَّ ابنَ تاشفينَ كان حذراً منهم ، ومتيقّظاً لحركاتِهم ، ومتوقعـــاً منهم الغدرَ والخيانةَ ، والقيامَ بمحاولة انتقامٍ لما أصابهم وحـــلَّ بهم .

وفجأةً انقضُّوا على معسكرِ المسلمين فـــأخرجوهم منـــه وكادتِ الدائرةُ تدورُ عليهم ، فخرجوا منه ، ثم كرّوا عليـــهم فأخرجوهم منه ، ثم كرَّ الأذفونشُ مرةً أُخرى فأخرج المسلمينَ من المعسكرِ ، ثم كرُّوا عليه وقاتلوه حتى أخرجوه ، هـــذا ولم تزلِ الكَرّاتُ بينهم تتوالى ، والحربُ سجالٌ مـــرةً للمســـلمين وأُخرى للإفرنجِ حتى اختارَ السلطانُ ابنُ تاشفينَ فرقـــةً مـــن السودانِ ، وكانوا أربعةَ آلافِ مقاتلٍ لا يلينونَ ، ولا ينثنـــونَ ، ولا يعرفونَ معنى التراجُعِ أو الهزيمةِ ، فدخلوا معسكرَ العـــدوّ بدَرَقِ اللمطِ وسيوفِ الهندِ . ومزاريقِ الزّانِ ، فطعنوا الخيـــلَ فرمحَتْ بفُرسانِها ، وأحجمَتْ عن أماكنِها ، فأبصرَ الأذفونـــشُ

فارساً من فرسانِ كتيبةِ السودانِ نفِدَتْ مزاريقُهُ ، فهجمَ عليه وأهوى ليضربَهُ بالسيفِ ، فأمسك به الأسودُ ، وقبضَ على عنانِهِ قبضةً قويةً وعنيفةً شلَّتْ حركتَهُ ، وجعلَتْهُ يحسُّ كأنَّ روحَهُ كادَتْ تخرجُ من أنفاسِهِ ثم انتضى خنْجراً كان مُتَمنطقاً به ، فأثبتَهُ في فخذِهِ فكسر حلقَ درعِهِ ، وتقطّعَتْ حبالُ سرجِهِ فسقط من ظهرِ فرسِهِ وهَوى على الأرضِ ، فظنَّ الفارسُ الأسودُ أنه مات فتركه يتخبّطُ بدمائِهِ ، وكان وقتَ الزوالِ ، فهبَّتْ ريحُ النصرِ ، وأنزل اللهُ سكينَتَهُ على عبادهِ المؤمنين ، ونصرَ دينَه العظيمَ ، وصدق المسلمون الحملةَ على عدوِهم ، فأزالوهم عن مواقِعِهم ، وأخرجوهم من مُعسْكرِهم ، فجعلوا يفّرون أمامَهم ، بعد أن ولّوا ظهورَهم ، وأسلمُوا أعناقَهم لسيوفِ المسلمين تصفعُهم ، والرماحُ تطعنُهم ، والمسلمون يُلاحقونهم حتى ألحقوهم بربوةٍ لجؤوا إليها واعتصموا بها ، فطوّقَها المسلمون ، وأحدقَتْ بهمُ الخيلُ ، وارتفع صهيلُها فملأ المكانَ ، وترددتْ أصداؤهُ في الأفقِ ، ووقع الخوفُ والذعرُ في قلوبِ الأعداءِ ، وأصبحوا في حالةٍ نفسيةٍ سيئةٍ فقدوا بها

معنوياتِهم ، وسيطر عليهمُ الرعبُ ، وخيَّمَ عليهم شبحُ الموتِ، تفطَّرَتْ منه قلوبُهم ، وتزلزلَتْ به نفوسُهم ، وارتعدَتْ منه فرائصُهم ، وفقدوا كلَّ أملٍ بالنجاةِ .

فلما أقبل الليلُ وادلهمَّ الظلامُ ، وخيَّمَ السكونُ على كلِ شيءٍ حتى ملأً الزمانَ والمكانَ ، انسحب المسلمون ، وغادروا الربوةَ ، وتركوا العدوَّ وقد فقد توازنَهُ والسيطرةَ على أعصابِهِ، وأصبح نهباً للخوفِ والقلقِ والاضطرابِ .

في هذه اللحظاتِ الرهيبةِ والحاسمةِ أرسل الأذفونشُ مَنْ يستطلعُ له الموقفَ ، وهلِ المسلمون ما زالوا في مواقِعِهِم أم غادروها وانسحبوا...؟

فلما رجع أخبرهم بانسحابِهِم وإخلاءِ مواقِعِهِم ، فأمر الأذفونشُ أصحابَهُ بالخروجِ من مخبئِهِم ومغادرةِ الربوةِ .

وبهذا أفلتَ من قبضةِ المسلمين ، ونجا من أظفارِ المنيةِ بعد أن تشبثَتْ به وبأصحابهِ وصار من الموتِ كقاب قوسين أو أدنى ...!!

واستولى المسلمون على ما كان في معسكرِ العدوِ من مـلل وسلاحٍ وعتادٍ وأُمِرَ بضمِ رؤوس القتلى فاجتمع منـــهم تـــلٌ عظيمٌ، جُعِلَ منه صوامعُ يصعدُ عليها المســـلمون لـــلأذان ، والمخذولُ لعنه اللهُ تعالى ينظرُ إلى موضعِ المعركـــةِ ، ومكـــانِ الهزيمةِ فلا يرى إلا نكالاً محيطاً به ، وشرا نازلاً عليـــه وعلـــى أصحابهِ

وقد رَوتِ المراجعُ التاريخيةُ أن موضعَ الزّلاقةِ على اتســاعِهِ ما كان فيه موضعُ قدمٍ إلا عليه جثةُ قتيلٍ أو دمٌ .

وأقام السلطانُ يوسفُ ، والمعتمدُ بنُ عبادٍ بذلك الموضـــعِ أربعةَ أيامٍ ثم جُمِعَتِ الغنائمُ وعُرِضَت على السلطانِ يوســـفَ فعفَّ عنها ، وأبى أن يأخذَ منها شيئاً ، وآثـــرَ بهـــا ملـــوك الأندلسَ، وأعلن لهم أن مقصدَهُ من مقدمِهِ هذا الجهادُ في سبيلِ اللهِ ، ونيلُ الأجرِ من الله تعالى، وابتغاءُ عفوهِ ومغفرتِهِ .

فلما رأتْ ملوكُ الأندلسِ عفةَ السلطانِ يوسفَ وإيثـــارَهم بالغنائمِ عَظُمَ في أعينهم ، وعَلَتْ منـــزلتُهُ لديـــهم ، فـــأحبوه وأكرموه وشكروا له ذلك ، واعترفوا له بالفضلِ والسيادةِ .

أما الأذفونشُ فإنه رجع إلى بلادهِ متوَّجاً بالخزي والعارِ ، يجرُ أذيال الخيبةِ والهزيمةِ وقد فقد جميعَ فرسانهِ ومستشـــاريه ، و لم يسمعْ من قومه إلا اللعنَ والشتائمَ ، ونـــواحَ الثكـــالى ، وبكاءَ الأراملِ واليتامى ، فحزن لذلك حزناً عميقاً ، واهتمَّ منه هماً شديداً وأقلع عن الطعامِ والشرابِ حـــتى مـــات جوعـــاً وعطشاً، وهماً وغماً ، وتلك نهايةٌ طبيعيةٌ لمن أعرض عن ذكـــرِ الله ، وحارب اللهَ ورسولهَ ، وصدَّ عن سبيلِهما ، واتخذ الغـدرَ والمكرَ والخديعةَ سبيلاً للنصرِ ، ونقْضَ العهدِ والميثاقِ وســـيلةً للتفوقِ والظفرِ ، وهذا كمعنى قولِهِ تعالى : (ومكـــروا مكـــراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون . فانظُرْ كيف كـــان عاقبـــةُ مكرِهِم أنا دمّرْناهم وقومَهم أجمعين .) [1] صدق الله العظيم .

على هامش المعركة

انتهت معركةُ الزلاقةِ بنصرٍ ساحقٍ للمسلمين ، وهزيمـــةٍ بشعةٍ ومنكرةٍ لخصومِهِمْ المعتدين ، انتـــهت بمـــوتِ قـــائِدِهِم

[1] الآيتان ٥٠ ــ ٥١ من سورة النمل .

الأذفونشِ الذي قاده الغرورُ والغطرسةُ إلى معركةٍ غيرِ متكافئةٍ كان فيها حتفُهُ والقضاءُ على كبرِهِ وغرورِهِ ، ونهايةٌ لتخطيطٍ طويلٍ ، واستعدادٍ تامٍ وكبيرٍ ، وتآمرٍ بالليلِ والنهارِ انتهى في أيامٍ قليلةٍ لم يستطعِ الأذفونشُ وجيشُهُ الكبير خلالها الصمودَ في وجهِ جندِ اللهِ المؤمنين على الرغم من غدرِهِم ومكرِهِم وعدمِ التزامِهِم بالعهدِ والميثاقِ ، وبذلك عرَّضَ نفسَهُ وجيشَهُ للذلِ والعارِ والهزيمةِ والهوانِ ، ولم يلقَ من أمتِهِ إلا السبَّ واللعنَ والتوبيخَ ، وفي ذلك وأمثالِهِ يقولُ الحقُّ تبارك وتعالى : ﴿ألم تَرَ إلى الذينَ بدَّلوا نعمةَ اللهِ كفراً وأحَلّوا فوقهم دارَ البوارِ ، جهنمَ يصلونها وبئس القرارُ . وجعلوا للهِ أنداداً ليُضِلُّوا عن سبيلِهِ قلْ تمتعوا فإن مصيرَكم إلى النارِ﴾ [1] صدق الله العظيم .

في حينِ اجتمعَتْ كلمةُ المسلمين على الصدقِ والإخلاص وطاعةِ اللهِ والرسولِ ، وتوحيدِ الصفِ ، وجمعِ الكلمةِ ، ورأبِ الصدعِ ، والثباتِ في وجهِ العدوِ دفاعاً عن العزةِ والكرامةِ والشرفِ والأعراضِ والأنفسِ والدينِ .

---

[1] الآيات ٢٨ ــ ٣٠ من سورة إبراهيم .

لم يقاتلوا لمغنمٍ أو شهرةٍ ، أو كسبِ لقبٍ ، أو نيلِ رتبةٍ فكانوا أهلاً للنصر والفوزِ والظفرِ مع قلةِ عددهِم ، وكثرةِ عدوهم .

كانوا أهلاً لتأييدِ الله تعالى حين التزموا أوامرَهُ ، واجتنبوا نواهيَهُ، وعملوا بطاعتِهِ ، وقاموا بما يرضيه كانوا أهلاً للنصرِ وتأييدِ اللهِ تعالى حين طبقوا قولَهُ تعالى : (إنَّ اللهَ يحبُ الذين يقاتلون في سبيلِهِ كأنهم بنيانٌ مرصوصٌ) [1] .

وحين عملوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (مَنْ قاتلَ لتكون كلمةُ اللهِ هي العليا فهو في سبيلِ اللهِ) [2] .

حين هبُّوا من سُباتِهم ، واستيقظوا من نومِهم ، وقاموا من غفلتِهم ، ورأوا قوى البغي والشرِ والفسادِ والطغيانِ تتآمرُ عليهم ، وتجتمعُ لاستئصالِهِم والقضاءِ عليهم وحّدوا كلمتَهم ، وجمعوا صفوفهم ، وأصبحوا كلمةً واحدةً ، ويداً واحدةً ، وقلباً واحداً . وطبقوا مبدأَ الشورى ، وتراسلوا واستعانوا

---

[1] الآية ٤ من سورة الصف .

[2] رواه الشيخان .

ببعضِهم على عدوِهم ، وذكروا قولَ اللهِ عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكمُ انفِروا في سبيلِ اللهِ اثّاقلتم إلى الأرضِ أرضيتم بالحياةِ الدنيا من الآخرةِ فما متاعُ الحياة الدنيا في الآخرةِ إلا قليلٌ . إلا تنفروا يعذبْكم عذاباً أليماً ويستبدلْ قوماً غيرَكم ولا تضروه شيئاً واللهُ على كل شيءٍ قديرٌ.) [1] .

(انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالِكم وأنفسِكم في سبيلِ اللهِ ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون .) [2] صدق الله العظيم .

ذكروا ذلك ثم قاموا قومةَ رجلٍ واحدٍ بدافع النخوةِ والغيرةِ والشهامةِ الإسلاميةِ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ ، ونشر دينهِ ولو كره الكافرون ، فثبتَ اللهُ قلوبَهم ، وألهمهمُ الثباتَ والصبرَ ، وأنزل عليهمُ النصرَ ، وفتح عليهم ، وخذل عدوَهم ، وكسر شوكتَهُ ، وجعل جنوده يهربون أمامهم متقهقرين ، متفرقين في الأرضِ لا يلوون على شيءٍ وكان أمرُ اللهِ قدراً مقدوراً . (وردّ

---

(١) الآيتان ٣٨ — ٣٩ من سورة التوبة .

(٢) الآية ٤١ من سورة التوبة .

الله الذين كفروا بغيظِهِم لم ينالوا خيراً وكفى اللهُ المؤمنين القتالَ وكان اللهُ قوياً عزيزاً) [1] صدق الله العظيم .

كتابُ ابنِ عبادٍ لولدِهِ يحملُ بشرى النصرِ

كتب المعتمدُ بنُ عبادٍ إلى ولدِهِ بإشبيليةَ بعد فراغِ المعركةِ يخبرُه بنزولِ نصرِ اللهِ ، وفتحِهِ على عبادِهِ المؤمنين ، فقال فيه:

كتابي هذا من المحلةِ المنصورةِ يومَ الجمعةِ الموفي عشرين من رجب ، وقد أعزَّ اللهُ الدينَ ، ونَصَرَ المسلمين ، وفتح لهمُ الفتحَ المبينَ ، وهزم الكفرةَ والمشركين ، وأذاقهم العذابَ الأليمَ ، والخطبَ الجسيمَ ، فالحمدُ للهِ على ما يَسَّرَهُ وسنّاه من هذه المسرةِ العظيمةِ ، والنعمةِ الجسيمةِ ، في تشتيتِ شملِ الأذفونشِ والاحتواءِ على جميعِ عساكرِهِ ، أصلاه اللهُ نكالَ الجحيمِ ، ولا أعدَمَهُ الوبالَ العظيمَ المليم ، وبعد إتيانِ النهبِ على محلاتهِ ،

---

[1] الآية ٢٥ من سورة الأحزاب .

واستئصالِ القتلِ في جميعِ أبطالهِ وحُماتِهِ ، حتى اتخذ المسلمون من هاماتِهِم صوامعَ يؤذنون عليها .

فللهِ الحمدُ على جميلِ صنعِهِ ، ولم يُصبْني والحمدُ للهِ إلا جراحاتٌ يسيرةٌ آلَمَتْ لكنها فُرِجَت بعد ذلك ، فللهِ الحمدُ والمنةُ ، والسلامُ .

نتائج معركة الزلاقة

هذا ... وقدِ استُشهِدَ في معركةِ الزلاقةِ عددٌ من العلماءِ والفضلاءِ وأعيانِ الناسِ ، منهم ابنُ رُقيلةَ صاحبُ الرؤيا المذكورةِ قبل بدءِ المعركةِ ، ومنهم قاضي مراكشَ عبدُ الملكِ المصموديُّ الملقبُ بأبي مروانَ ، وغيرُهما رحمهم اللهُ جميعاً وغفر لهم ، وأسكنهم فسيحَ جناتِهِ مع الذين أنعم اللهُ عليهم من النبيين والصديقين والشهداءِ والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً .

في حين مات الأذفونشُ من الأعداءِ غماً وهماً كما تقدم ، وراح إلى أمِهِ الهاويةِ وبئسَ المصيرُ ، ولم يتركْ سوى ابنةٍ واحدة هربَتْ فتحصّنَتْ بطُلَيْطِلَةَ ، وليم يبقَ له عَقِبٌ ولا نسلٌ ،

وقطع اللهُ ذِكرَهُ ، ولم يُبقِ له أثراً ولا ذريةً ، وقُطِعَ دابرُ الذيـــن ظلموا والحمدُ للهِ ربِ العالمين .

أمّا السلطانُ يوسفُ فقد رحل مع ابنِ عبادٍ إلى إشـــبيليةَ فأقام عنده ثلاثةَ أيامٍ ، ثم وردَتْ إليه الأخبارُ مـــن المغـــربِ تقتضي ضرورةَ عودتِهِ إلى البلادِ لأمورٍ هامةٍ لا تُحَلُ ولا تعالَجُ إلا بوجودِهِ شخصياً ، فودّعَ ابنَ عبادٍ وانصرف إلى المغرب .

وأمّا المعتمدُ بن عبادٍ الذي رجع مع ضيفِـــهِ ورفيقِـــهِ في السلاحِ والجهادِ في سبيلِ اللهِ ، فقد رجع إلى إشـــبيليةَ مثقَـــلاً بالجراحِ ، فاجتمع إليه الناسُ يهنئونـــه مـــن كـــلِ مكـــان ، فاستقبلهم وجلس معهم رغم جراحاتِهِ التي تورّمَـــتْ فآلمتْـــهُ وأزعجتْهُ ، ولكنه تحامل عليها وجلس يستقبلُ وفودَ المـــهنئين الذين قدموا إليه من جميعِ أنحاءِ الأندلسِ .

هذا ... وقام الخطباءُ والشعراءُ أمامه ينشدون بين يديـــه أرقّ الشعرِ ، وأحلى الكلامِ وأعذَبَهُ ، وجلس قـــراءُ القـــرآنِ يتلون كلامَ اللهِ تعالى ، ويدعون له بالنصرِ والظفـــرِ ، والعـــزِ

وطولِ العمرِ ليقومَ بنصرِ الدينِ وحمايةِ البلادِ ومقارعةِ الأعداءِ، والقضاءِ على مؤامراتِهِم ، وإحباطِ مخططاتِهِم .

يقــولُ عبدُ الجليلِ بن وهبونَ وكان أديباً بارعاً ، وشاعراً فصيحاً:

حضرتُ ذلك اليومَ ، وأعدَدْتُ قصيدةً أُنشدُها بين يديه، فقــرأ القارئُ : (إلا تنصروه فقد نَصَرُه اللهُ) فقلتُ : بعداً لي ولشــعــري ، واللهِ ما أبقَتْ لي هذه الآيةُ معنىً أحضُرُهُ وأقومُ به.[1]

لقــد كانــت معركةُ الزلاقةِ مفخرةَ العربِ والمسلمين حيث نصرَهُمُ اللهُ نصراً مؤزراً ، وأذَلَّ عدوَّهم وقهرَهُ ، ودكَّ عروشَ الكافــرين والمشركين، وقضى على دولتِهِم فلم تقم لهم بعدها قائمةٌ .

ولســوف تبقى معركةُ الزلاقةِ حيةً في قلوبِ المسلمين ، وماثلــةً في نفوسِهِم عبر تاريخِهِمُ المجيدِ يفخرون بها ، ويتغنّون بنتائجها ، ويذكرون ذلك اليومَ الأغرَّ الذي نصر اللهُ فيه الحقَ

---

[1] نفح الطيب .

وأهلَهُ ، وهزم الكفرَ وأعوانَهُ ، ودكَّ حصونَ الشركِ ، وأسقط عروشَهم وتيجانَهم ، وقطع دابرَهم والحمدُ للهِ ربِ العالمين

وإنـــنا لـــنذكرُ معركة الزلاقةِ كلَّ يومٍ بفخرٍ واعتزازٍ ، ونرفعُ رؤوسَـــنا بكل شموخٍ وإباءٍ ، ونفخر بهؤلاءِ الرجالِ العظماء ، والقـــادةِ النجباءِ الذين ضحَوا بكل ما يملكون ، وتنازلوا عن مناصبِهم ، وتخلَّوا عن مراتبهِم ، وعفّوا عنِ الغنائمِ ، ورفضوا المراتـــبَ والمناصبَ والألقابَ ، واجتمعوا تحت قيادةٍ واحدةٍ ، وانضـــوَوا تحت رايةِ الإسلامِ يقاتلون عدواً مشتركاً استهدف أمـــنَهم ووجودَهـــم ، وديـــنَهم وبلادَهم ، واستغل تفرقهم وخلافـــاتهم ، فجمع جموعه ، وألّبَ أعوانَه ، واستعمل الغدرَ والمكـــرَ والخيانةَ معتقداً أنه سوف يستطيعُ أن يحققَ أحلامَهُ ، فيـــنالَ مـــنهم ، وينتصرَ عليهم منذُ اللحظاتِ الأولى ما داموا متفرقين يتآمرُ بعضُهم على بعضٍ بانبعاثِ روحِ العصبيةِ القبليةِ ووقـــوعِ خـــلافٍ بين العربِ والبربرِ يوشكُ أن يطحَنَهـــم ويقضـــيَ عليهم ، ونسيَ أن المسلمَ يتجاوزُ جميعَ الخلافاتِ ،

ويتخطّى جميعَ العقباتِ أمام القضيةِ الكبرى التي تهمُّ المسلمين جميعاً ، وتمسُّ دينَهم وتراثَهم وعقيدتَهم .

لقد نسيَ أن المسلمَ يرفضُ الذلَّ ، ويأبى الضيمَ ، ويقاومُ الظلمَ، ولا يرضى بالاستسلام ، ولا يحني جبهتَهُ إلا لله ، ذلك أنه عزيزٌ لا يذلُّ، قويٌّ لا يضعُفُ ، شجاعٌ لا يجبنُ ، إنه سرعانَ ما يستيقظُ من سباتِهِ ويصحو من غفلتِهِ ، ويهبُّ مسرعاً لنجدة أخيه المسلمِ ولو كان في أقصى أطرافِ الأرضِ يغيثُهُ وينصرُهُ ، ويدافعُ عنه بكلِ ما أوتيَ من قوةٍ ، ويبذلُ روحَهُ ودمَهُ وكلَّ ما يملكُ دفاعاً عنه لدرءِ الظلمِ وردِ العدوانِ ومقاومةِ البغي والطغيانِ ، ومقارعةِ الشرِ والفسادِ في كلِ زمانٍ ومكان .

لقد كانت معركةُ الزلاقةِ نموذجاً حياً ، ومثالاً صادقاً ، ورمزاً عظيماً لوحدةِ المسلمين والتقاءِ مشاعرِهِم ، واجتماعِ كلمتِهِم ، وتوحيدِ صفوفِهِم تحتَ رايةِ الإسلامِ فاستحقوا من الله النصرَ ، وكانوا أهلاً للفتحِ والظفرِ ، وهذا وعدٌ ثابتٌ من اللهِ تعالى لا يتخلّفُ ، ولن يتخلّفَ إلى يومِ القيامةِ إذا توفرَتْ

في المسلمين عواملُ النصرِ ، وأسبابُ التأييدِ والظفرِ كما توفرت فيهم يوم معركةِ الزلاقةِ الخالدةِ ، قال اللهُ تعالى : (إنا لننصُرُ رسلَنا والذين آمنوا في الحياةِ الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ) [1] . فنصرُ اللهِ تعالى ليس مقصوراً على الرسلِ فحسبُ بل هو عامٌ في المؤمنين المستوفين أسبابَ النصرِ ، مصداقُ ذلك قولُ الحقِ تبارك وتعالى : (ولقد سبقَتْ كلمتُنا لعبادِنا المرسَلين إنهم لهُمُ المنصورون . وإنَّ جنْدنا لهُمُ الغالبون) [2] صدق اللهُ العظيم .

معركة رُوطة

وهي قلعةٌ منيعةٌ بالأندلسِ ، قال المقري : هي قلعةٌ منيعةٌ من عاصماتِ الذرا ، وماؤها ينبعُ من أعلاها ، وفيها من الأقواتِ والذخائرِ المختلفاتِ ما لا تفنيه الأزمانُ .

---

(1) الآية ٥١ من سورة غافر .

(2) الآيات ١٧١ ـــ ١٧٣ من سورة الصافات .

لقد كانت معركةُ قلعةِ روطةَ جزءاً من معركةِ الزلاقـــةِ ، ومتممةً لها . ذلك أن السلطانَ يوسفَ بنَ تاشفينَ حين عـــزم العودةَ إلى المغربِ إثرَ أنباءٍ وردَتْ إليه وهو بإشبيليةَ في ضيافـــةِ المعتمدِ بنِ عباد كما تقدم، تعلمُهُ بضرورةِ عودتِهِ إلى المغـــربِ لأمورٍ هامةٍ لا تُحَلُّ إلا بوجودِهِ شخصياً ، فودَّعَ ابـــنَ عبـــاد وانصرف إلى المغربِ واستخلف الأميرَ سيرَ بنَ أبي بكرٍ نائبـــاً عنه في الأندلسِ وكان من قوادِهِ المقربين وفرسانِهِ المشهورين ، وكان موضعَ ثقتِهِ وأمانتِهِ ، وترك معه جيشاً كبيرا يعتمدُ عليـه في القتالِ إذا ما حصل قتالٌ ، أو تمردٌ من الفرنجةِ .

ولم يكدِ الأميرُ سيرُ بنُ أبي بكر يستقرُ أياماً حتى دخـــل بلادَ الأذفونشِ ، وبثَّ جنودَهُ في أطرافِها ونواحيها ، ومضـــى يتوغلُ في البلادِ يفتحُ الحصونَ المنيعةَ ، ويدكُّ المعاقلَ الصعبـــةَ الحصينةَ ، ويطلقُ الإغاراتِ السريعةَ والشجاعةَ ، فجمع مغـــانمَ كثيرةً ، وأموالاً وفيرةً ، وذخائرَ وأسلحةً عظيمةً ، ثم أرسل بها إلى السلطانِ يوسفَ ، وكتب له يعلمُهُ أنَّ الجيـــوشَ بـــالثغورِ مقيمةٌ ، وعلى الحدودِ متحفزةٌ ترقبُ تحركاتِ العدوِ ، وترصدُ

أماكنَهُ ومواقعَهُ وأنها مستعدةٌ لخوضِ الحربِ ومتابعةِ القتالِ في أضيقِ العيشِ وأنكدِهِ ، بينما ملوكُ الأندلسِ في قصورِهم وبين أهلِهم في أرغدِ العيشِ وأطيبِهِ .

فكتب إليه السلطانُ يوسف أنْ يأمرَهم بالانتقالِ والرحيلِ إلى أرضِ العُدوةِ [1] ، فَمنْ فعل فذاكَ ، ومَنْ أبى فحاصِرْهُ وقاتله ، ولا تنفسْ عليه ، ولتبدأْ بمَنْ والى الثغورَ ، ولا تتعرضْ للمعتمدِ بنِ عبادٍ إلاّ بعد استيلائكَ على البلادِ ، وكلُّ بلدٍ أخذتَهُ فولِّ فيه أميراً من عساكركَ ... والسلام .

فبدأ سيرُ بنُ أبي بكرٍ بتنفيذِ أمرِ السلطانِ ، فأولُ مَنِ ابتدأ بهم من ملوكِ الأندلسِ بنو هودٍ ، وكانوا بقلعةِ روطةَ المذكورةِ، فحاصرها فاعتصم بها بنو هود ، فلم يستطعْ الأميرُ سيرُ أن يفتَحها فرحل عنها ، ثم جنَّدَ أجناداً وجعلهم على هيئةِ الفرنجةِ باللباسِ والسلاحِ والزيِّ ، وأمرهم أن يُغيروا عليها ويقتحموها، وكَمَنَ هو ومعه عددٌ من الفرسانِ قريباً منها ، فلما رآهم أهلُ القلعةِ استهانوا بهم ، واستضعفوهم ، واعتقدوا

---

[1] أرض العدوة ، أو بر العدوة ، وهي منطقة جبلية صعبة .

أنهم من الفرنجةِ ، فنـــزلوا إليهم وجعلوا يقـــاتلونهم ومعـــهم قائدهم صاحبُ القلعةِ ، فخرج عليه الأميرُ سيرُ بنُ أبي بكـــرٍ ، فنازله لحظاتٍ ثم تمكنَ من القبض عليه فأخذه أسيراً ، فـــألقى أهلُ القلعةِ أسلحتَهم واستسلموا وتسلّمَ الأميرُ سيرٌ الحصنَ .

ثم قصدَ بني طاهرٍ وكانوا بشرقِ الأندلـــسِ ، فصـــالحوه وأسلموا له البلادَ ، وانقادوا لأميرِ السلطانِ يوسفَ ، ولحقـــوا ببرِ العُدوةِ .

ثم قصد بني صُمادِحَ بالمريةِ ، ولها قلعةٌ حصينةٌ ، فحاصرها وضيَّقَ عليهم ، فلما أدرك ابنُ صُمادِحَ أنه مغلوبٌ لا محالـــةَ حزن لذلك حزناً شديداً ، ومات هماً وغبناً ، فأخذ الأميرُ سـيرٌ القلعةَ ، واستولى على المريةِ ، وجميعِ أعمالِها .

ثم قصد بَطَلْيوسَ ، وكان بها المتوكلُ عمرُ بن محمدِ بـــنِ الأفطسِ، فحاصَرَهُ ، وأخذه أسيراً بعد أنِ استولى على جميـــعِ أعمالِهِ وأموالِهِ .

هذا ... ولم يبقَ أمامَ الأميرِ سيرٍ من ملوكِ الأندلـــسِ إلا المعتمدُ بنُ عبادٍ الذي أوصاه به السلطانُ يوسفُ خيراً ، وأمَـرَهُ

أن لا يتعرضَ له إلا بعد أن يستوليَ على جميع بلادِ الأندلسِ ، وها هو ذا قد فعل ما أُمِرَ به ، وأنجَزَ مهمتَهُ على أتمِّ وجهٍ وأكملِهِ ، فما هو فاعلٌ الآن بابنِ عبادٍ...؟

إنه لا يستطيعُ أن يفعلَ شيئاً قبلَ أن يستشيرَ سيدَهُ السلطانَ يوسفَ بنَ تاشفينَ ، فكتب إليه يخبرُهُ بما فعل ، ويسألُهُ ما هو فاعلٌ بابنِ عبادٍ إذ لم يبقَ من ملوكِ الأندلسِ غيرُهُ ، وجميعُهم استسلموا وانتقلوا من قصورِهم إلى برِّ العُدوةِ.

بين المعتمدِ بنِ عبادٍ ويوسفَ بنِ تاشفينَ

قبل ذكرِ جوابِ السلطانِ يوسفَ لنائبِهِ سيرِ بنِ أبي بكرٍ حول مصيرِ ابنِ عبادٍ لا بدَّ من الرجوعِ قليلاً إلى يومِ نزولِ ابنِ تاشَفينَ ضيفاً على ابنِ عبادٍ بعد فراغِهِما من معركةِ الزلاقةِ ليكونَ الربطُ بين الحادثتين مناسباً .

قال المقري في نفحِ الطيبِ : فلما انتهى ابنُ تاشفينَ إلى إشبيليةَ مدينةِ المعتمِدِ ، وهي من أحسنِ المدنِ وأجلِّها منظراً ، أمعن يوسفُ النظرَ فيها وفي محلِها ، وهي على نهرٍ عظيمٍ

مستبحرٍ تجري فيه السفنُ بالبضائعِ جالبةً من برٍّ المغرب وحاملةً إليه .

وفي غربِها رستاقٌ [1] عظيم مسيرةَ عشرين فرسخاً يشتملُ على آلافٍ من الضياعِ كُلُّها تينٌ وعنبٌ وزيتونٌ ، وهذا هو المسمّى بشرفِ إشبيليةَ ، وتمتازُ بلادُ المغربِ كُلّها بهذه الأصنافِ منه .

وفي جانبِ المدينةِ قصورُ المعتمِدِ وأبيه المعتضِدِ في غايةِ الحسنِ والبهاءِ .

وفيها أنواعُ ما يحتاجُ إليه من المطعومِ والمشروبِ والملبوسِ والمفروشِ وغير ذلك ، فأنزل المعتمدُ يوسفَ بنَ تاشَفينَ في أحدِها ، وتولّى من إكرامِهِ وخدمتِهِ ما أوسعَ شكرَ ابنِ تاشفين له .

وكان مع ابنِ تاشَفينَ أصحابٌ له ينبهونه إلى حسنِ تلك المحالّ وتأمُّلِها . وما هي عليه من النعمةِ والإترافِ ، ويغرونه باتخاذِ مثِلها ، ويقولون له : إن فائدةَ الملكِ قطعُ العيشِ فيه

---

[1] الرستاق : هو الناحية التي هي طرف الإقليم ، والجمع رساتيق .

بالتـــنعمِ واللذةِ كما هو المعتمدُ وأصحابُهُ ، وكان ابنُ تاشَفينَ عاقلاً مقتصداً في أمورِهِ ، غيرَ متطاولٍ ولا مبذرٍ ، غيرَ سالكٍ نهجَ الترفِ والتأنقِ في اللذةِ والنعيمِ ، إذ ذهب صدرُ عمرِهِ في بـــلادهِ بالصـــحراءِ في شظفِ العيشِ ، فأنكر على مَنْ أغراه بذلك الإسرافِ وقال له : الذي يلوحُ لي من أمرِ هذا الرجلِ – يعـــني المعـــتمدَ – أنـــه مضيّعٌ لما في يدِهِ من الملكِ ، لأن هذه الأموالَ الكثيرةَ التي تُصرَفُ في هذه الأحوالِ لا بُدَّ أن يكونَ لها أربـــابٌ لا يمكنُ أخذُ هذا القدرِ منهم على وجهِ العدلِ أبداً ، فأخذُهُ بالظلمِ ، وإخراجُهُ بهذه الطريقةِ أفحش استهتارٍ ، ومَنْ كانـــت همـــتُهُ في هذا الحدِ من التصرفِ فيما لا يعدو طعامَهُ وشـــرابَهُ ،مـــتى تستنجد همته في ضبط بلاده وحفظها وصون رعيته والتوفر لمصالحها؟ ولعمري لقد صدق.

ثم إن ابنَ تاشفينَ سأل عن أحوالِ المعتمدِ في لذاتِه : هل تختلفُ فتنقصَ عمّا عليه في بعضِ الأوقاتِ ...؟

فقيل له : بل كلُ زمانِهِ على هذا .

فقال : أفكلُّ أصحابِهِ وأنصارِهِ على عدوِّهِ ومنجديه على الملكِ ينالُ حظاً من ذلك ...؟

فقالوا : لا .

قال : فكيف ترون رضاهم عنه ...؟

فقالوا : لا رضى لهم عنه .

فأطرق وسكت ، وأقام عند المعتمِدِ على تلك الحالِ أياماً. [1]

وبذلك يكونُ ابنُ تاشفينَ قد كوَّنَ فكرةً عامةً عن المعتمِدِ بنِ عبادٍ وأحوالِهِ وتصرفاتِهِ بأمورِ الدولةِ ، ولهوِهِ وعبثِهِ وبذخِهِ وإسرافِهِ الأموالَ على اللهوِ والعبثِ ، شأنُهُ في ذلك كشأنِ جميعِ ملوكِ الأندلسِ، من أجل هذا أَمَرَهم أن يتحولوا من حياةِ اللهوِ والترفِ في القصورِ إلى حياةِ الاقتصادِ والخشونةِ ، لا سيما وأنهم يعيشون حالةَ حربٍ دائمةٍ مع الإفرنجِ ، وهي لا تناسبُ حياةَ اللهوِ والترفِ ، لذلك أَمَرَهم أن يتحولوا إلى برِّ العُدوةِ ليعتادوا حياةَ القسوةِ والخشونةِ فيكونوا أكثرَ استعداداً وأشدَّ تلاؤماً مع ظروفِ الحربِ .

---

[1] نفح الطيب .

هذا ... ولم يكتفِ السلطانُ يوسفُ بما سمعه عن حياةِ ابنِ عــبادٍ وانغماســهِ في الشهواتِ ، فجمع أعوانَهُ ومستشاريه ، وأهلَ العلمِ والفقهِ ، وأخذَ آراءَهم واستفتاهم ما هو فاعلٌ بابنِ عبادٍ ...؟

فجعل بعضُهم يعظّمون عنده بلادَ الأندلسِ ، ويحثونه على قتالِه، وأخذِها منه ، ويوغرون صدرَهُ عليه بأمورٍ نقلوها عنه ، وحسدوهُ عليها .

وحكى ابنُ خلدونَ أن علماءَ الأندلسِ أفتَوه بجوازِ خلعِ المعتمدِ وغيرِهِ من ملوكِ الطوائفِ ، وبقتالِهِم إنِ امتنعوا .

فجهز يوسفُ العساكرَ إلى الأندلسِ ، وحاصرَ سيرُ بنُ أبي بكرٍ أحدُ عظماءِ دولةِ يوسفَ إشبيليةَ وبها المعتمدُ ، فكان من دفاعِهِ وشدةِ ثباتِهِ ما هو معلومٌ ، ثم أُخِذَ أسيراً ، وصار طرفُ الملكِ بعده حسيراً .

وفي وصــفِ ذلــك يقولُ صاحبُ القلائدِ : ثم جُمِعَ هو وأهلُهُ وحَمَلَتْهُمُ الجواري المنشآتُ ، وضمتْهُم جوانحُها كأنهم أمــواتٌ ، بعدمــا ضاق عنهمُ القصرُ ، وراق منهمُ المِصْرُ ،

والناسُ قد حُشِروا بضفّتَي الوادي ، يبكون بدموعٍ كالغوادي، فساروا والنوحُ يحدوهم ، والبوحُ باللوعةِ لا يعدوهم .

انتهى ملخّصاً من نفحِ الطيبِ .

الحُسّادُ يوقعون بين ابنِ عبادٍ وابنِ تاشفينَ

وفي فترةِ إقامةِ السّلطانِ ابنِ تاشَفينَ في قصرِ ابنِ عبادٍ ، استأذنَ رجلٌ على المعتمدِ ، وكان ذا هيئةٍ رثّةٍ ولكن تبدو عليه علاماتُ الفطنةِ والذكاءِ . فلما دخلَ عليه ومثلَ بين يديه قال : أصلحكَ اللهُ أيُّها السلطانُ ، وإن من أوجبِ الواجباتِ شكرَ النعمةِ ، وإنّ مِنْ شكرِ النعمةِ إهداءَ النصائحِ ، وإني رجلٌ من رعيتِكَ حالي في دولتِكَ إلى الاختلالِ ، أقربُ منها إلى الاعتدالِ ، ولكنني مع ذلكَ مستوجبٌ لك من النصيحةِ ما للملِكِ على رعيتِهِ ، فمن ذلك خبرٌ وقعَ في أذني من بعضِ أصحابِ ضيفِكَ هذا يوسفَ بنِ تاشَفينَ يدلُّ على أنهم يرونَ أنفسَهم وملِكَهم أحقَّ بهذه النعمةِ منكَ ، وقد رأيتُ رأياً فإن آثرتَ الإصغاءَ إليه قلتُهُ .

فقال له المعتمدُ : قُلْهُ .

فقال له : رأيتُ أنَّ هذا الرجلَ الذي أطلعتَهُ على ملكِكَ مستأسِدٌ على الملوكِ قد حطَّم على زناتةَ ببرِ العُدوةِ ، فأخذ الملكَ من أيديهم ، ولم يُبْقِ على واحدٍ منهم ، ولا يُؤمَنُ أن يطمحَ إلى الطمعِ في ملكِكَ ، بل في ملكِ جزيرةِ الأندلس كلِّها، لما قد عاينَه من هناءةِ عيشِكَ ، وإنه لمتحيّلٌ في مثلِ ذلك لسائرِ ملوكِ الأندلسِ ، وإن له من الولدِ والأقاربِ وغيرِهم مَنْ يودُّ له الحلولَ بما أنتَ فيه من خصْبِ الجنابِ ، وقد أرْدى الأذفونشَ وجيشَهُ ، واستأصل شأفتَهم ، وأعدمَكَ منه أقوى ناصرٍ عليه لو احتجتَ إليه ، فقد كان لكَ منه أقوى عَضُدٍ وأوفى مِجَنٍّ ، وبعدُ فإنّه إنْ فات الأمرُ في الأذفونشِ فلا يَفُتْكَ الحزمُ بما هو مُمكنٌ اليومَ .

فقال له المعتمدُ : وما هو الحزمُ اليومَ ...؟

فقال : أن تجمعَ أمرَكَ على قبضِ ضيْفِكَ هذا ، واعتقالِهِ في قصرِكَ ، وتجزمُ أنّك لا تُطلقُهُ حتى يأمرَ كلَّ مَنْ بجزيرةِ الأندلسِ من عسكرِهِ أن يرجعَ من حيثُ جاءَ ، حتى لا يبقى

منهم أحدٌ بالجزيرةِ طفلٌ فمَنْ فوقَهُ ، ثم تتفقُ أنــتَ وملــوك الجزيرةِ على حراسةِ هذا البحرِ من سفينةٍ تجري فيه له ثم بعــد ذلك تستحلفُهُ بأغلظِ الأيمانِ ألا يضمرَ في نفسهِ عَوْداً إلى هــذه الجزيرةِ إلا باتفاقٍ منكم ومنه ، وتأخذَ منه على ذلك رهــائنَ فإنه يعطيكَ من ذلك ما تشاءُ ، فنفسُهُ أعزُّ عليهِ من جميعِ مــا يُلْتَمَسُ منه ، فعند ذلك يقتنعُ هذا الرجلُ ببلادهِ التي لا تصلــحُ إلا له ، وتكونُ قدِ استرحْتَ منــه بعدمــا اســترحْتَ مــن الأذفونشِ ، وتقيمُ في موضِعِكَ على خير حالٍ ، ويرتفعُ ذكــركَ عند ملوكِ الجزيرةِ ، ويتسعُ ملكُكَ ، ويُنسَبُ هذا الاتفاقُ لــك إلى سعادةٍ وحزمٍ وتهابُكَ الملوكُ ، ثم اعملْ بعد هذا ما يقتضيــه حزمُكَ في مجاورةِ مَنْ عاملتَهُ هذه المعاملةَ ، واعلمْ أنه قد تهيّــأَ لك من هذا أمرٌ سماويٌ تتفانى الأممُ ، وتجري بحارُ الــدمِ دون حصولِ مثلِهِ .

فلما سمع المعتمدُ كلامَ الرجلِ استصوبَهُ ، وجعل يفكــرُ في انتهازِ الفرصةِ المناسبةِ لتنفيذِ رغبةِ ذلك الرجلِ .

وكان للمعتمدِ ندماءُ قدِ انهمكوا معه في اللذات ، فقال أحدُهم لهذا الرجلِ الناصِحِ : ما كان المعتمدُ على الله ــ وهو إمامُ أهل المكرماتِ ــ ممنْ يعاملُ بالحيفِ ، ويغدُرُ بالضيفِ .

فقال الرجلُ : إنما الغدرُ أخذُ الحقِ من يدِ صاحبِهِ ، لا دفعُ الرجلِ عن نفسِهِ المحذورَ إذا ضاق به .

فقال ذلك النديمُ : ضيمٌ مع وفاءٍ خيرٌ من حزمٍ مع جفاءٍ .

ثم إن ذلك الناصحَ استدركَ الأمرَ وتلافاه ، فشكر له المعتمدُ ووصَلَهُ بصلةٍ ، واتصل هذا الخبرُ بيوسفَ فأصبح غادياً ، فقدَّمَ له المعتمدُ الهدايا السنيّةَ ، والتحفَ الفاخرةَ ، فقبلها ثم رحل.[1]

أسرُ المعتمدِ بنِ عبادٍ

ذكرتُ في الصفحات السابقةِ كيف أُسِرَ المعتمدُ بن عبادٍ نقلاً عن كتابِ نفح الطيب الذي نقل عنِ ابنِ خلدون ، وقد رأيتُ في كتابِ وفياتِ الأعيانِ روايةً مختلفةً عن تلك الروايةِ ، فأردتُ أن أذكرَها هنا لما فيها من زيادةِ تفصيلٍ ، وللربطِ بينها

---

(1) نفح الطيب .

وبـــين رحـــيلِ السلطانِ ابنِ تاشَفينَ من عندِ ابنِ عبادٍ محملاً بالهدايا السنيةِ ، والتحفِ الفاخرةِ .

قال ابنُ خَلّكانُ : ثم إن الأميرَ يوسفَ عاد إلى الأندلسِ في العـــامِ الـــثاني وخرج إليه المعتمدُ ، فحاصرا بعضَ حصونِ الفـــرنجِ ، فـــلم يقدرا عليه ، فرحلا عنه ، وعبر يوسفُ على غـــرناطةَ ، فخرج إليه صاحبُها عبدُ اللهِ بنَ بُلُكّين . فغدر به يوســـفُ ودخلَ البلدَ ، فأخرج عبدَ اللهِ ودخل قصرَهُ ، فوجد فيه من الأموالِ والذخائرِ ما لا يُحَدُّ ولا يُحصى، ثم رجع إلى مـــراكشَ وقد أعجَبَهُ حسنُ بلادِ الأندلسِ وبهجتُها ، وما فيها مـــن المباني والبساتينِ والمطاعمِ وسائرِ أصنافِ الأموالِ التي لا توجَدُ في مراكش ، فإنها بلادُ بربرٍ وأجلافِ العربانِ ، وجعل خواصُّ الأميرِ يوسفَ يعظمون عنده بلادَ الأندلسِ ، ويحسنون له أخذَها ، ويغرون قلبَه على المعتمدِ بأشياءَ نقلوها عنه ، فتغيَّرَ علـــيه وقَصَدَهُ ، فلما انتهى إلى سبـــتةَ [1] جهز إليه العساكرَ

---

[1] سبتة : بلاد مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس . انظر معجم البلدان

وقدَّمَ عليها سيرَ بنَ أبي بكرٍ الأندلسيَّ، فوصل إلى إشبيليةَ وبهـا المعتمدُ فحاصَرَهُ أشدَّ محاصرةٍ ، وظهر من مصـــابرةِ المعتمِـــدِ وشدةِ بأسه وترامِيه على الموت بنفسهِ مـــا لم يســـمعْ بمثلِـــهِ، والناسُ بالبلدِ قد استولى عليهمُ الفزعُ ، وخامَرَهُمُ الجـــزعُ ، يقطعون سُبُلَها سباحةً ، ويخوضون نهرَها سباحةً ، ويـــترامون من شرفاتِ الأسوارِ ، فلما كان يومُ الأحدِ ، العشرون مـــن رجب سنةَ أربعٍ وثمانين وأربعِمِئةٍ هجم عسكرُ الأميرِ يوســـفَ البلدَ وشنّوا فيه الغاراتِ ولم يتركوا لأحدٍ شيئاً ، وخرج الناسُ من منازلِهم يسترون عوراتِهم بأيديهم ، وقُبض على المعتمِـــدِ وأهلِهِ ، وكان قد قُتِل له ولدان قبل ذلك ، أحدُهما ، المأمونُ ، وكان ينوبُ عن والدِهِ في قرطبةَ فحصروهُ بها إلى أن أخـــذوهُ وقتلوهُ . والثاني الراضي ، وكان أيضاً نائباً عن أبيه في رُنـــده ، وهي من الحصونِ المنيعةِ ، فنـــزلوها وأخذوها وقتلوا الراضي ، ولأبيهما المعتمِدِ فيهما مراثٍ كثيرةٌ .

ولمّا أُخِذَ المعتمدُ قيدوه من ساعتِهِ ، وجُعِلَ مع أهلِــهِ في سفينةٍ ، وحملتهم الجواري المنشآتُ ، وضمتهم كأنهم أمــواتٌ ... الخ كما في روايةِ ابن خلدونَ المتقدمةِ .

وقد رويَ أن الأميرَ يوسفَ بنَ تاشَفينَ أمرَ بإرسالِ ابــن عبادٍ إلى مدينةِ أغمات [1] فسُجِنَ بها ، ولم يخرجْ منــها إلى أنْ ماتَ .

حزنُ الشعراءِ على أسرِ المعتمدِ بنِ عبادٍ

لقد حزنَ الناسُ على أسرِ ابنِ عباد حزناً شديداً ، وقــال فيه الشعراءُ كلاماً عذباً رقيقاً يبثون فيه أحزانَهم ، ويذكــرون تحسُّرَهم وآلامَهم على فراقِهِ منهم أبو بكرٍ محمدُ بــنُ عيســى الواقي المعروفُ بابنِ اللبانةِ :

---

[1] أغمات : بليدة وراء مراكش بينهما مسافة يوم بسير الأقدام ، وقد خرج منها جماعة من العلماء المشاهير

تبكي السماءُ بدمعٍ رائحٍ غادي　　على البهـــاليلِ من أبناءِ عبّادِ [1]

ومن جملتها :

يا ضيفُ أقفرَ بيتُ المكرماتِ فخُذْ　　في ضمِّ رحلِكَ واجمعْ فضلةَ الزادِ

وهي قصيدةٌ طويلةٌ لم يُذْكَرْ منها غيرُ هذين البيتين كما قال المقري . [2]

ومنهم أبو محمد عبدُ الجبار بنُ حمديسَ الصقليُّ :

ولّما رحلتم بـــالندى في أكفِكـــم　　وقُلْقِلَ رضوى منكم وثبيرُ [3]

رفعتُ لساني بالقيامةِ قـــد دنَـــتْ　　فهذي الجبالُ الراسياتُ تسيرُ

وقال أبو بكرٍ الداني أيضاً :

لكل شيءٍ من الأشيـــاءِ ميقـــاتُ　　وللمـــنى مـــن منايـــاهُنَّ غايـــاتُ

والدهرُ في صبغةِ الحرباءِ منغمـــسٌ　　ألوانُ حالاتِهِ فيهـــا استحـــالاتُ

ونحنُ من لُعَبِ الشطرنجِ في يـــدِهِ　　وربمـــا قُمِـــرَت بـــالبيدقِ الشـــاةُ

---

[1] البهاليل : جمع بُهلول ، وهو الرجل الكريم ، ويقال : امرأة بُهلول ، والبُـــهلول : العزيـــز الجامع لكل خير .

[2] نفح الطيب

[3] رضوى : جبل بالمدينة ، وثبير : جبل من جبال مكة .

نفــض يديكَ من الدنيا وساكنِها فالأرضُ قد أقفَرَتْ والناسُ قد ماتوا

وقلِ لعالَمِها الأرضيِّ قد كَتَمَتْ ســريرةَ العــالمِ العلــوي أغماتُ

وقال فيه أيضاً :

تنشَّـقْ ريــاحينَ الســلامِ فإنمــا أفــضُّ بهــا مســكاً عليكَ مُختَّما

وقُــلْ لي مجازاً إنْ عدمْتَ حقيقةً لعلَّــكَ في نُعمــى وقد كنتَ مُنعَما

أفكــرُ في عصرٍ مضى لكَ مشرقاً فيرجــعُ ضوءُ الصبحِ عندي مظلما

وأعجــبُ من أُفقِ المجرّةِ إذ رأى كســوفَكَ شمساً كيف أطلَعَ أنجما

لــئنْ عَظُمَت فيكَ الرزيةُ [1] إننا وجدنــاكَ مــنها في الرزية أعظما

ودخَلَتْ عليه يوماً بناتُهُ السجنَ ، وكان يومَ عيدٍ ، وكُنَّ يغــزِلْنَ للــناسِ بالأجرةِ في أغماتَ ، حتى إن إحداهنَّ غزلَتْ لبيتِ صاحبِ الشرطةِ الذي كان في خدمةِ أبيها وهو في عزِّهِ وســلطانِه ، فرآهنَّ في أطمارٍ [2] رَثَّةٍ ، وحالةٍ سيئةٍ ، فصَدَعْنَ قلبَهُ ، فأنشد قائلاً :

---

[1] الرزية : المصيبة ، والجمع رزايا .

[2] الأطمار : جمع طمر ، وهو الثوب الخلق .

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مسروراً فساءك العيدُ في أغماتَ مأسوراً

نرى بناتِكَ في الأطمار جائعةً يغزلْنَ للناس لا يملِكْن قطميرا

برزْنَ نحوكَ للتسليم خاشعةً أبصارُهُنَّ حسيرات مكاسيرا

يطأْنَ في الطين والأقدامُ حافيةٌ كأنها لم تطأْ مسكاً وكافورا

ومنها أيضاً :

لا خَدَّ إلا ويشكو الجدبَ ظاهرُهُ وليس إلا مع الأنفاسِ ممطورا

قد كان دهرُكَ إنْ تأمرْهُ ممتثلاً فردَّك الدهرُ منهياً ومأمورا

مَنْ باتَ بعدَكَ في ملكٍ يُسرُّ به فإنما باتَ بالأحلامِ مغرورا

ودخل عليه ولدُهُ أبو هاشم وهو في حالةٍ سيئةٍ ، والقيودُ قد عَضَّتْ على ساقيه فأدمتهما وتركتْ فيهما جرحاً بليغاً ، فلما رأى ولَدَهُ بكى وقال :

قيدي أما تعلمُني مسلّماً أبيتَ أن تُشفقَ أو ترحما

دمي شرابٌ لك واللحمُ قد أكلْتَهُ لا تهشم الأعظُما

بصُـرُني فيـكَ أبـو هاشـم	فينشـني والقلـبُ قـد هُشِّـما
رحـمْ طُفَيـلاً طائشـاً لُبُّـهُ	لم يخـشَ أن يـأتيك مسـترحما
ارحـمْ أُخَيـات لـه مثلَـهُ	جرعتَـهُنَّ السُـمَّ والعلقمـا
نهنَّ مَـنْ يفـهمُ شـيئاً فقـد	خفنـا عليـه للبكـاء العمـى
الغـيرُ لا يفـهمُ شـيئاً فمـا	يفتـحُ إلا لرضّـاعِ فمـا

ويروى أنه اجتمع عنده جماعةٌ من الذين كـان يحسـنُ ليهم، فتأثَّر على نفسهِ وخجل منهم ، فأنشد قائلاً :

سألوا اليسيرَ من الأسـير وإنـه	بسؤالِهم لأحَقُّ منـهم فـاعجب
ـولا الحيـاءُ وعـزةٌ لخميّـةٌ	طيَّ الحشا لحكـاهُمُ في المطلـب

ترجمةُ ابنِ عبادٍ

هو المعتمدُ على الله أبو القاسمِ محمدُ بنُ المعتضِدِ أبو عمرو باد بنِ القاضي أبي القاسمِ بنِ عبادٍ ، ملكٌ مجيـدٌ ، وأديـبٌ شاعرٌ وفارسٌ ذو نجدةٍ وشهامةٍ وكرمٍ وجودٍ فريدٍ .

قال عنه ابنُ القطاع : إنه أندى ملوكِ الأندلسِ راحــةً ، وأرحبُهم ساحةً ، وأعظمُهم ثِماداً [1] ، وأرفعُــهم عمــاداً ، ولذلك كانت حضرتُهُ ملقى الرجالِ ، وموسمَ الشعراءِ ، وقبلةَ الآمالِ ، ومألفَ الفضلاءِ ، حتى إنه لم يجتمعْ بباب أحدٍ مـــن الملوكِ من أعيانِ الشعراءِ ، وأفاضلِ الأدباءِ ، ما كان يجتمـــعُ ببابِهِ .

وقال ابنُ بسامٍ في الذخيرةِ : للمعتمدِ شعرٌ ، كما انشـــقَّ الكِمامُ عن الزهرِ ، لو صار مِمَّنْ جعل الشعرَ صناعةً ، واتخــذَهُ بضاعةً ، لكان رائقاً معجباً ، ونادراً مستغرَباً ، فمـــن ذلـــك قولُهُ:

أكثرتَ هجرَكَ غيرَ أنكَ ربمـــا	عطفتـــكَ أحيانـــاً علـــيَّ أمـــورُ
فكأنما زمـــنُ التـــهاجرِ بيننـــا	ليلٌ وساعاتُ الوصـــالِ بـــدورُ [2]

[1] الثماد : هو المكان الذي يجتمع فيه الماء .

[2] نفح الطيب .

وعزم على إرسال بعضِ نسائِهِ من قرطبةَ إلى إشـــبيليةَ ، فخرج معهنَّ يُشيعُهُنَّ ، فسار معهُنَّ من أولِ الليلِ إلى الصبحِ ، فودعهنَّ ورجعَ ، وفي طريقِ عودتِهِ أنشد أبياتاً رقيقـــةً منـــها هذان البيتان :

سايرتُهُنَّ والليـــلُ عَقَـــدَ ثوبَـــهُ حـــتى تبـــدّى للنواظـــرِ معلمـــا
فوقفْتُ ثم مودّعـــاً وتســـلَّمَتْ مني يدُ الإصبـــاحِ تلـــك الأنجمـــا

وفي المعتمِدِ وأبيه المعتضِدِ قال بعضُهم :

من بني منـــذرٍ وذاكَ انتســـابُ زاد في فخرهِـــم بنــــو عبّـــاد
فتيـــةٌ لم تلِـــدْ ســـواها المعـــالي والمعـــــالي قليلـــــةُ الأولاد

كانت ولادةُ ابنِ عبادٍ في شهرِ ربيعِ الأولِ سنةَ إحـــدى وثلاثين وأربعِمئةٍ بمدينةِ باجة من بلادِ الأندلسِ وتسلَّم مقـــاليدَ الحكمِ بعد وفاةِ أبيه .

وتوفيَ في السجنِ بأغماتَ لإحدى عشرة ليلةً خَلَتْ مـــن شوال .

وقيل : في ذي الحجةِ سنةَ ثمانٍ وثمانين وأربعمِئةٍ .

قال ابنُ خَلّكان : ومن النادرِ الغريبِ أنه نوديَ في جنازتِهِ بالصلاةِ على الغريبِ ، بعد عظمِ سلطانهِ ، وجلالِ شـأنهِ ، فتبارك من له البقاءُ والعزةُ والكبرياءُ .

واجتمع عند قبرِه جماعةٌ من الشعراءِ الذين كانوا يقصدونه بالمدائحِ ، ويجزِلُ لهمُ المنائحَ ، فرثَـوه بقصـائدَ مطـوّلاتٍ ، وأنشدوها عند قبرِهِ ، وبكوا عليه دمعاً شجياً .

فمنهم أبو بحرٍ عبدُ الصمدِ شاعرُهُ المختصُّ بـه ، رثـاه بقصيدةٍ طويلةٍ أجادَ فيها ، وأولُها :

مِلِكَ الملوك أسـامعٌ فأنـادي	أم قدْ عَدَتْكَ عنِ السماعِ عَـوادي
لما لُقِلْتَ عنِ القصورِ ولم تكـنْ	فيها كما قـد كنـتَ في الأعيـادِ
أقبلتُ في هذا الثرى لكَ خاضعاً	وجعلتُ قـبرَكَ موضـعَ الإنشـادِ

ولما فرغَ من إنشادِها قبَّلَ الثرى ، ومَرَّغَ جسمَهُ ، وعفَّرَ خَدَّهُ ، فأبكى كلَّ من حَضَرَ .

ويُروى أن رجلاً رأى في منامِهِ كأنَّ رجلاً صعِدَ منـبرَ جامعِ قرطبةَ ، واستقبلَ الناسَ ثم أنشدَ :

رُبَّ ركبٍ قد أناخوا عِيسَهُمْ | في ذرا مجدِهِمُ حين بَسَقْ
سكتَ الدهرُ زماناً عنهمُ | ثم أبكاهم دماً حين نطقْ

ورأى الشاعرُ أبو بكر الداني واحداً من أحفادِ المعتمدِ بنِ عبادٍ وهو غلامٌ وسيمٌ قد اتخذَ الصياغةَ صناعةً ، وكان يلقّبُ في أيامِ جدِهِ المعتمدِ فخرَ الدولةِ ، فنظر إليه وهو ينفُخُ الفحمَ بقصبةِ الصائغِ ، فقال من جملةِ قصيدةٍ :

شكاتُنا فيكَ يا فخرَ العُلا عَظُمَتْ | والرُّزْءُ [1] يعظمُ فيمَنْ قدرُهُ عظُما
طُوِّقْتَ من نائباتِ الدهرِ مخنقةً | ضاقَتْ عليك وكم طوقتنا نعما
وعاد طوقُكَ في دكانِ قارعةٍ | من بعد ما كنتَ في قصرٍ حكى إرما
صرِّفْتَ في آلةِ الصوّاغِ أنملةً | لم تدر إلا الندى والسيف والقلما
يدٌ عهدتك للتقبيل تبسطها | فتستقلُّ الثريا أن تكونَ فما
يا صائغاً كانتِ العليا تُصاغُ له | حُلياً وكان عليه الحليُ منتظِما
للنفخِ في الصورِ هولٌ ما حكاه سوى | أني رأيتُك فيه تنفخُ الفحما

---

[1] الرزء : المصيبة .

ودِدْتُ إذ نظرَتْ عيني عليــــكَ بـــه	لو أن عينيَ تشكـــو قبل ذاكَ عمـــى
ما حطَّكَ الدهرُ لما حطّ مـــن شـــرفٍ	ولا تحيَّفَ مـــن أخلاقِـــكَ الكرَمـــا
لُحْ في العُلا كوكباً إنْ لم تلُـــحْ قمـــراً	وقمْ بهـــا ربـــوةً إن لم تقـــمْ علمـــا
واللهِ لو أنصفَتْكَ الشهبُ لانكسَـــفَتْ	ولو وفى لك دمعُ العـــينِ لانســـجما
أبكى حديثك حتى الدهر حـــين غـــدا	يحليكَ رهطـــا وألفاظـــاً ومبتســـما

انتهى من وفياتِ الأعيانِ لابنِ خلِّكان .

الخاتمة

وفي سنةِ خمسمِئةٍ مات السلطانُ يوسفُ بنُ تاشَفينَ رحمـه اللهُ تعالى ، وكان يُلَقَّبُ بأميرِ المسلمين وملكِ الملَثَّمين ، وهـو الذي سمّى أصحابَهُ المرابطين ، وهم قومٌ يتلثّمون ولا يكشفونَ وجوهَهم ، وتلكَ سنّةٌ لهم يتوارثونها خلفاً عن سَلَفٍ .

وسببُ اتخاذهمْ اللثامَ أنهم قومٌ من حمْيرٍ كانوا يتلثّمـون لشدّةِ الحرِ والبردِ يفعُله الخواصُّ منهم ، ثم كَثُرَ ذلك حتى صـلو يفعلُهُ عامّتُهم.

وقيل في سببهِ إنّ قوماً من أعدائِهم كانوا يقصدونَ منازلَهم في حالِ غيابِهِم عنها ، فيدخلونها ويأخذونَ المالَ والنساءَ ، فأشارَ عليهمْ بعضُ مشايخِهِم أن يُبقوا النساءَ في زيّ الرجالِ إلى ناحيةٍ ما ، ويبقَى الرجالُ في البيوتِ ملثَّمين في زيّ النساءِ ، فإذا جاءهمُ العدوُّ حسبوهمُ النساءَ فيخرجونَ عليهمْ ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسّيوفِ فقتلُوهم ، فمن أجلِ ذلك لزِمُوا اللثامَ تبرّكاً بما حصلّ لهم من الظّفرِ بالعدو .

وقيلَ : إنّ سببَ اللثامِ لهم أن طائفةً من لمتونةَ خَرجوا مغيرين على عدوٍّ لهم ، فخالفهمُ العدوُّ إلى بيوتِهِم ، و لم يكنْ بها إلا الشيوخُ والصبيانُ والنساءُ ، فلما تحقّق الشيوخُ أن العدوَّ مغيرٌ عليهم ، أمرُوا النساءَ أن يلبسْنَ ثيابَ الرجالِ ويتلثّمْنَ ، ويضيقْنَهُ حتى لا يُعرفْنَ ، وبقيَ النساءُ في البيوتِ ، فلمّا أشرفَ العدوُّ رأى جمعاً عظيماً فظنَّه رجالاً وقالوا : هؤلاء عند حريمِهم يُقاتِلون عنهنَّ قتال الموتِ ، والرأيُ أن نسوقَ النّعمَ ونمضيَ ، فإنِ اتّبعونا قاتلْناهم خارجاً عن حريمِهم ، فبينما هُمْ في جمعِ النّعمِ من المراعي إذ أقبلَ رجالُ الحّي ، فبقي العدوُّ

بينهم وبين النساءِ ، فجعلُوا يقاتلونهم حتى أكثرُوا فيهمُ القتلَ ، وكان من قبَلِ النساءِ أكثرَ .

فمن ذلك الوقتِ جعلوا اللثامَ سُنّةً يلازمونه ، فلا يُعرَفُ الشيخُ من الشابّ ، ولا يُزيلونه ليلاً ولا نهاراً ، ولذلك تسمَّوا بالملثّمين ، واللهُ أعلمُ .

ولقد قيلَ في اللثامِ :

قومٌ لهم دركُ العُلا في حِمْيَرِ ... وإن انتحَوْا صنهاجةً فهمْ همُ
لِما حدَوا إحرازَ كلّ فضيلةٍ ... غَلَبَ الحياءُ عليهمُ فتلثّموا

فلما ماتَ يوسفُ بنُ تاشفينَ رحمه الله تعالى ، قام بالملكِ بعده ابنُهُ أميرُ المسلمين عليُّ بنُ يوسفَ ، فسلكَ سننَ أبيه ، وكان بطلاً شجاعاً ، ونقياً عادلاً ، محباً لقتالِ العدوّ ، مجاهداً في سبيلِ اللهِ تعالى .

لقد أعلنَ عليُّ بنُ يوسفَ الجهادَ على عدوِّه في الأندلسِ منذ أن تولّى الحكمَ ، حتى ثار عليه محمدُ بنُ تومرتَ الملقّبُ بالمهدي الذي أسَّسَ دولةَ الموحّدينِ ، فلم يزلْ يسعى في هدمِ

بنيانِ لمتونةَ إلى أن ماتَ ولكنّه لم يستطعْ السيطرةَ على عاصمتِهِم مراكشَ مع أنه ملكَ كثيراً من البلادِ .

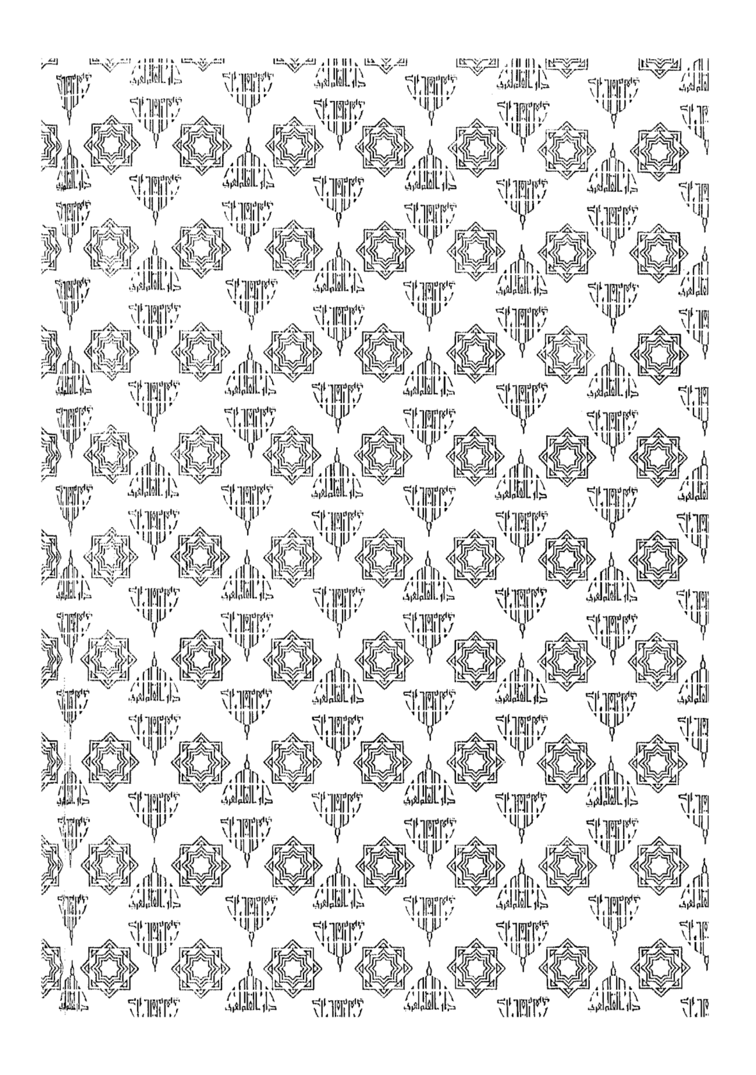
ثم أصبحَتْ بلادُ الأندلسِ مسرحاً لخلافاتٍ كثيرةٍ ، وحروبٍ طاحنةٍ بين المسلمين أنفسِهِم تارةً ، وبينهم وبين الفرنجةِ تارةً أخرى .

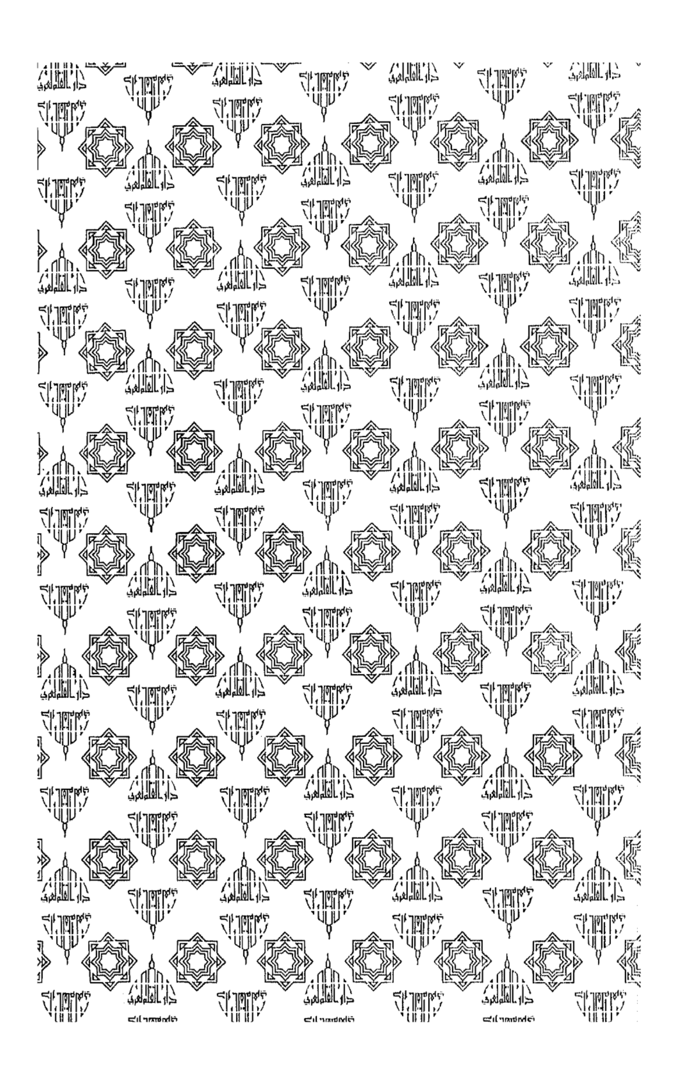
هذا وسوف نقفُ على هذه الأحداثِ في رسالتِنا التاليةِ إنْ شاء الله تعالى .

تمتِ الرسالة والحمد لله رب العالمين

وإلى اللقاء مع معركةٍ إسلاميةٍ أخرى .

(الفهرس)





معارك عربية إسلامية خالدة

للصغار واليافعين

١ ـ معركةُ ذي قـار
٢ ـ معاركةُ بـدْرٍ
٣ ـ معركةُ أحُـدٍ
٤ ـ معركةُ الخَنْدقِ
٥ ـ معركةُ حُنَيْنٍ
٦ ـ معركةُ اليمَامةِ
٧ ـ معركة اليرموكِ
٨ ـ معركةُ الجسْرِ
٩ ـ معركةُ القَادسيّةِ
١٠ ـ معركةُ فتحِ المدائِنِ
١١ ـ معركةُ نـهاَ ونـدْ
١٢ ـ معركةُ فتحِ الأندلسِ
١٣ ـ معركةُ بَلاطِ الشّهداءِ
١٤ ـ معركةُ وادي الحِجارَةِ
١٥ ـ معركةُ العموريّةَ
١٦ ـ معركةُ الزّلاّقةِ
١٧ ـ معركةُ حِطينَ
١٨ ـ معركةُ بيتِ المقْدِسِ
١٩ ـ معركةُ عـكّا
٢٠ ـ معركةُ عَيْنِ جالوتَ

لم تكن الحربُ لدى العرب المسلمين غايةً لذاتها ، وإنما كانت لردّ الع... الأخطار ، ولإزاحة أولئك الذين يقفون في وجه الدعوة ويحولون دو... وهي معارك تشمل على بطولات وتضحيات وجود بالنفس (والجودُ ب... غاية الجود).

ودار القلم العربي للأطفال بحلب ـ إذ تنشر هذه الكتب ـ إنما تسعى إلى... نفوس الأبناء حبّ التضحيةِ والفداء ، وحبّ ابائهم الذين بذلوا دماءَه... شامخةً لايدّنسها مستعمرٌ غاشم.

والله من وراء القصد

الناشر

I.S.B.N: 1 - 5050 - 3

